ابن هبيرة وابن سيار
وسقوط الخلافة الأموية

أحمد علي السري

i:/University/Gulf-APS/gulf-aps111/Skoot.3D بروفة ثالثة: (N)

البحوث والدراسات

ابن هبيرة وابن سيار وسقوط الخلافة الأموية

أحمد علي السري
جامعة الإمارات – دولة الإمارات العربية المتحدة

الملخص:

يحلل هذا البحث بالتفصيل العلاقة بين ابن سيار، والي خراسان، وابن هبيرة والي العراق وكل مشرق الخلافة الأموية. وهما أهم شخصيتين حكمتا العراق والمشرق في أواخر عهد الخلافة الأموية. تناقش الدراسة موضوعين أساسيين هما أولا: أثر علاقة ابن هبيرة وابن سيار على سير أحداث الثورة العباسية التي بدأت في خراسان وانتهت بإسقاط الخلافة الأموية، وثانيا: موقف مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين من أحداث الثورة العباسية، على ضوء العلاقة بين رجليه المذكورين في العراق وخراسان. وقد كشف تحليل الروايات التاريخية وبشكل خاص المراسلات التي جرت بين ابن هبيرة وابن سيار، كشف تفاصيل مهمة حول الأحداث التي جرت في خراسان والعراق في سنوات الثورة العباسية. وقد خلصت الدراسة إلى أن الطموحات الشخصية لابن هبيرة من جانب وسوء العلاقة بينه وبين ابن سيار من جانب آخر أسهما بقسط وافر في سقوط الخلافة الأموية، وهو ما تهمله الدراسات الحديثة التي تبحث عن أسباب السقوط عادة في موقعة الزاب الشهيرة بين العباسيين والأمويين.

ارتبطت أحداث الثورة العباسية في كل من إيران والعراق بشكل رئيس باسم كل من نصر بن سيار الليثي (ابن سيار)، والي خراسان ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري (ابن هبيرة) عامل العراق كونهما كانا المسؤولين عن جبهة شرق الخلافة كلها أمام الخليفة مروان بن محمد.

وأكثر الدراسات ذكراً للعلاقة بين ابن هبيرة وابن سيار، ما أورده الدكتور فاروق عمر فوزي في كتابه طبيعة الدعوة العباسية، حيث أورد مراسلات بين ابن سيار وابن هبيرة والخليفة، وذكر انكسار العلاقة بين

– تم تسليم البحث في يونيو ٢٠٠٢، وأجيز للنشر في أكتوبر ٢٠٠٢.

الاثنين، وغياب التنسيق بين القوات الأموية[١]، ومع ذلك فإن دراسة تفصيلية، مستقلة عن العلاقة بين الرجلين بكل أبعادها لا توجد حتى الآن، حسب علمي.

وستحاول هذه الدراسة ومن خلال المراسلات المتبادلة، باعتبارها أهم وثائق العصر، والنصوص التاريخية الأخرى إلقاء ضوء على العلاقة بين أهم شخصيتين جابهتا زحف القوات الهاشمية (المسودة)[٢] صوب العراق.

ولن يكون مروان بن محمد آخر الخلفاء بعيداً عن أحداث هذه الدراسة لكنه وهو رأس المثلث في (حران) التي اتخذها مقراً لخلافته بدلاً من دمشق[٣] سيكون شاهداً على مجريات الأمور بين رَجُليه في خراسان والعراق.

والسؤال المطروح أمامنا هو هل كانت العلاقة بين ابن هبيرة وابن سيار ذات أثر في سير الأحداث وبالتالي في سقوط الخلافة لا سيما وابن هبيرة المسؤول الأول على كامل الجزء الشرقي من الخلافة أمام مروان بن محمد؟

كيف كان ينظر كل من ابن هبيرة وابن سيار لأحداث خراسان مركز الثورة العباسية؟ هل كانا يريان مراميها البعيدة المتحققة بعدئذ أم كانت بالنسبة لهما تمرداً كسائر التمردات التي عصفت بأرجاء الخلافة الأموية؟ ما هي السياسات التي انتهجها ابن هبيرة بصفته المسؤول عن كل المشرق تجاه ما جرى من أحداث في خراسان وما بعدها باعتباره واسطة العقد

---

(١) عمر فوزي، فاروق، طبيعة الدعوة العباسية، ط١، دار الإرشاد ١٩٧٠، ص١٨١–١٨٩.

(٢) سنستخدم في هذا البحث مصطلحات مثل، القوات الهاشمية، والمسودة، والقوات العباسية بمعنى واحد وهو الإشارة إلى القوات التي ثارت بخراسان وزحفت إلى الكوفة لإسقاط الخلافة الأموية، فالقوات الهاشمية، ويرد ذكرها في المصادر، نسبة إلى الدعوة التي انطلقت باسم بني هاشم، ثم المسودة، ثم القوات العباسية وهو مصطلح غير مصدري ويستخدم للإشارة إلى نسبة هذه القوات إلى من نظم وخطط واعتلى عرش الخلافة بعدئذ. وقد رأينا أن نثبت هذا منذ البدء نفياً لأي خلط أو سوء فهم.

(٣) عن نقل العاصمة من دمشق إلى حران وأسباب ذلك وآثاره، انظر مصطفى شاكر، دولة بني العباس، ج١، وكالة المطبوعات بالكويت، ١٩٧٣، ص٧٧–٧٨.

وهمزة الوصل في العراق بين قاعدة الخلافة الجديدة حران وقاعدة الثورة في خراسان؟ ما هي الآثار التي ترتبت على سياساته ورؤاه وقراراته المتخذة؟ ولا بد أيضاً ضمن هذه الأسئلة من استقصاء موقف الخليفة مروان بن محمد مما جرى بين ابن هبيرة وابن سيار.

تلك هي الأسئلة الأساس التي سنحاول الإجابة عنها من خلال محاور محددة ارتأيناها ضرورية للإحاطة بالأحداث التي نستطيع تحليل مواقف الشخصيات الأساسية في ضوء المعلومات التي تجود بها المصادر التاريخية، وتلك المراسلات المهمة التي جرت بين أهم ثلاثة أطراف كانوا في مواجهة الزحف الهاشمي القادم من خراسان، الخليفة مروان بن محمد وابن سيار بخراسان وابن هبيرة في العراق.

محاور البحث:

- ابن هبيرة وولايته العراق.
- ابن سيار وولايته خراسان.
- ابن هبيرة وابن سيار وأحداث الثورة العباسية بخراسان.
- ابن هبيرة وأحداث الثورة العباسية بعد وفاة ابن سيار.
- سقوط الخلافة ومصرع ابن هبيرة.

ابن هبيرة وولايته العراق:

ولأن ابن هبيرة هو المسؤول الأول أمام مروان بن محمد وآخر من أطيح بهم من أركان الحكم الأموي، فلا بد من استحضار موجز للظروف التي أهلته ليكون حاكم المشرق كله لمروان بن محمد.

والأخبار ليست كثيرة عن ابن هبيرة قبل ولايته قنسرين للوليد بن يزيد عام ١٢٥هـ (٧٤٣م) ولعله كان مرافقاً لأبيه في المواقع العسكرية المختلفة وأثناء ولايته العراقين (البصرة والكوفة)، لكن من الواضح أن ابن هبيرة قد ورث عن أبيه الطموح إلى المناصب واكتسب بعض السياسات التي

تقربه منها. وأول ذكر لابن هبيرة يصادفنا في المصادر هو أنه كان عاملاً للخليفة الوليد بن يزيد القيسي الهوى على قنسرين. فلما تغلب يزيد بن الوليد على الخلافة بالقوة وبدعم من اليمانية، عُزل ابن هبيرة عن قنسرين ثم انضم مع وجوه من القيسية[٤] إلى حاكم أرمينية الأموي وواسع النفوذ مروان بن محمد، في المطالبة بدم الوليد، وكان مقتل الوليد بن يزيد قد فتح الباب واسعاً أمام الطامحين إلى منصب الخلافة دون حاجة إلى ولاية عهد من أحد[٥]، فتحولت المطالبة بدم الوليد إلى طموح إلى منصب الخلافة عند مروان بن محمد. وكان ابن هبيرة أحد أبرز أعوانه في ذلك. فلما صار مروان بن محمد خليفة كان ابن هبيرة الساعد الأيمن له في العراق، فخاض معارك ضارية في عين التمر وملحان والصرّاة وواسط والموصل ضد الخوارج والحركات الأخرى المناهضة لمروان بن محمد. وكان لنجاح ابن هبيرة هذا أثر في علو كعبه وبروز نجمه فصار حاكم العراق عام ١٢٨هـ (٧٤٦م) على أرجح الأقوال[٦]، بل والمشرق كله بما في ذلك خراسان الغنية والأثيرة عند ولاة العراق، مكافأة له على خدماته الجليلة.

ابن سيار وولايته خراسان:

لا تجود المصادر بأخبار كثيرة عن بدايات ابن سيار، وأقدم ذكر له يرد في سياق الحديث عن حملات قتيبة بن مسلم الباهلي، حيث كان ابن سيار مقاتلاً في جيشه فيما وراء النهر، وبعد ذلك تتحدث المصادر عن توليته كورة من كور خراسان، ثم يعين بعد ذلك والياً على خراسان كلها للخليفة هشام بن عبدالملك ابتداء من عام ١٢٠هـ (٧٣٨م) وبعد استعراض عدد من

(٤) ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، ط٢، دار القلم، بيروت ١٩٧٧، ص٣٧٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ط٤، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص٣٠٠.

(٥) قارن بما أورده، شاكر مصطفى، ص٧٦.

(٦) ابن خياط، ص٣٨٢.

المرشحين لولايتها، فاقتنع الخليفة هشام بما بسط أمامه من خصال لابن سيار، عفيف مجرب، باسل محنك[٧]، وولاه خراسان رغم ما ذكر في المصادر من قلة عشيرته بها[٨]، وكان هذا حسب التجربة شرطاً لولاية خراسان، إلا أن الخليفة هشام قال إنه هو عشيرته[٩]. ومع ذلك فإن باحثاً معاصراً رأى أن الأخبار عن قلة عشيرته لا يمكن الأخذ بها، بل العكس هو الصحيح وأنه لهذا السبب أيضاً ولي على خراسان وكان شيخ مضر فيها[١٠]. وقد كانت ولاية ابن سيار لخراسان منذ البداية مرافقة ببعض الضيق لوجود من هو أحق بالولاية منه كجديع الكرماني الأزدي زعيم أهل اليمن هناك. وقد تمكن ابن سيار من تثبيت أقدامه بخراسان والحفاظ على الإقليم ومجابهة الثوار هنا وهناك بل والغزو خارج خراسان، وتوطدت له الأمور حتى رآه بعض الرواة ملكاً[١١]. ولم ينج ابن سيار من آفة عصره وهي العصبية المزمنة فانحاز صراحة للقيسية بوجود كثرة من أهل اليمن أقدم منه وجوداً وأعز نفراً.

ومع ذلك فقد كان ابن سيار من الناحية الإدارية تابعاً لعامل العراق يوسف بن عمر الثقفي، وتبين قصة جمع الهدايا والطرف التي كان قد أعدها ليصل إلى رئيسه في العراق طبيعة العلاقة بين الرئيس والمرؤوس، ثم ما صار لابن سيار من أبهة وملك بخراسان. لكن موت الخليفة هشام يوقف مسيرة ابن سيار بهداياه النفيسة انتظاراً لما سيحدث خاصة وهو يعرف

(٧) الدينوري، ابن قتيبة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، د.ن. ١٩٥٩، ٣٤١.

(٨) الدينوري، ص٣٤٢، الطبري، ٧/ ١٥٥.

(٩) الدينوري، ص٣٤٢.

(١٠) شعبان، محمد عبدالحي، الثورة العباسية، دار الدراسات الخليجية، أبوظبي، ١٩٧٧، ص٢١٠. كما أن الكتاب وبحكم تركيزه ولاية خراسان يتحدث بالتفصيل عن سنوات ولاية نصر بن سيار عليها، والمشاكل التي واجهته هناك، انظر الصفحات ٢٠٩-٢٢٢.

(١١) مؤلف مجهول، العيون والحدائق، من خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم، ج٣، مطبعة بريل، هولندا، ١٨٦٩، ص١٨٤.

المشاحنات التي وقعت بين الخليفة هشام وولي عهده الوليد بن يزيد والذي اضطر للابتعاد عن دمشق كي لا يجبر على التنازل عن ولاية العهد. فلما آلت إليه الخلافة عام ١٢٥هـ (٧٤٢م) بعد موت هشام أطلق يد نصر في خراسان وأفرده بها وجعل صلته بالشام مباشرة. لكن قتل الوليد بن يزيد والتغلب على الخلافة من قبل يزيد بن الوليد بمساعدة فاعلة من اليمانية كان مقدمة لصراع جديد مكشوف بين اليمنية والقيسية[١٢] فانتقلت جذوة العصبية إلى خراسان وبدأت حرب العصبيات المشهورة. لكن ابن سيار يرتبط ثانية برئيس في العراق بوصفه وسيطاً بينه وبين الشام عندما يتمكن مروان بن محمد من التغلب على سدة الخلافة وإزاحة اليمانية من مواقع النفوذ، وقد مر بنا كيف عاون ابن هبيرة مروان بن محمد على استرداد العراق وصار حاكم المشرق كله. وحرصاً على ولاء ابن سيار بخراسان للأوضاع الجديدة بهواها القيسي ثانية أرسل ابن هبيرة بعهد الولاية إلى نصر ويبايع الأخير مروان بن محمد.

ابن هبيرة وابن سيار وأحداث الثورة العباسية بخراسان:

بعد صبر ومطاولة داما ثلث قرن من الزمان برز أنصار الدعوة الهاشمية إلى العلن كقوة سياسية يحسب حسابها عام ١٢٩هـ (٧٤٧م) ودخلت معترك المناورات والتحالفات مع القوى المختلفة الموجودة بخراسان، وهي كتلة اليمن بحلفائهم من ربيعة بزعامة علي بن جديع الكرماني الأزدي، وكتلة الخوارج التي تسيطر على بعض جهات خراسان بزعامة شيبان الخارجي، وكتلة القيسية التي يتزعمها ابن سيار والي خراسان.

ولا شك أن القبول الذي لقيته الدعوة بعد إعلانها قد أذهل ابن سيار كما أذهلته حنكة قائدها الشاب أبي مسلم الخراساني، وكان أخطر شعارات الدعوة هو شعار الرضى من آل محمد، وهو الشعار الذي لا يقبل حلاً

(١٢) الدينوري، ص٣٥١.

وسطاً لأي خلاف لأنه يعني ببساطة سحب أي اعتراف بسلطة بني أمية وولاتهم بوصفهم حكاماً شرعيين والدعوة إلى إمام يرضى عنه آل محمد فيما بينهم. أما من هو الذي يدعى له أو من هو الشخص الذي رضي آل محمد أن يكون إماماً لهم وللمسلمين فقد بقي سراً إلى حين.

وتبين المراسلات والوفادات المتبادلة التي جرت بين ابن سيار وأبي مسلم الخراساني طبيعة المواقف ومبرراتها الدينية بوضوح لدرجة أن يروى أن ابن سيار أراد الدخول معهم لو أنه فقط استطاع التأكد من سلامته عندهم(١٣). ويبدو أن مثل هذه الفكرة قد خطرت بباله مداراة للموقف فقط(١٤) بعد أن رأى خصمه ابن الكرماني يختال بعسكره في مرو، فكتب، كما يروي ابن خياط، إلى أبي مسلم «إني معك وأنا أحق بك من ابن الكرماني، وأنا ابايعك»(١٥). وقد أمل أبو مسلم الخراساني بيعة نصر له وللرضى من آل محمد وتبادل الطرفان رسلاً وضربت مواعيد للقاء، لكن تعقد الأوضاع في خراسان وتراكم الأحقاد ودماء ثارات سلفت بينه وبين حلفاء ابي مسلم من أهل اليمن وحلفائهم من ربيعة وحنكة أبي مسلم السابقة في تمكنه من قطع الطريق أمام أي حلف جديد بين خصوم الأمس ضده، أقنع ابن سيار بالهرب من مرو، فأدرك أبو مسلم أن ما أمله من لقاء نصر وتقبل البيعة(١٦) منه، لم يكن سوى مناورة من نصر يؤمن بها سبيل هربه الذي كان يوم الجمعة في العاشر من جمادى الأول سنة ١٣٠هـ (٧٤٧/١١/٢١م). ولم يتمكن أبو

(١٣) مجهول، مؤلف من القرن الثالث، أخبار الدولة العباسية، دار الطليعة للبطاعة والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص٣٠١.

(١٤) الطبري، ج٧، ص٣٨٤. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢، ص٣٨١.

(١٥) ابن خياط، ص٣٩٠.

(١٦) ابن خياط، ص٣٩٠. الطبري، ٣٨٤/٧. مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣١٨.

مسلم وابن الكرماني من اللحاق بنصر لكنهما أدركا امرأته المرزبانه[١٧] فصيرها أبو مسلم زوجة له بعدئذ[١٨].

وبين رمضان عام ١٢٩هـ (يونيو ٧٤٧م) بداية ظهور أبي مسلم وجمادى الأولى سنة ١٣٠هـ (يناير ٧٤٨م) تفصل ثمانية أشهر هي التي قضاها ابن سيار في المداراة والمدافعة ومحاولات ترميم صلته بابن الكرماني ضد أبي مسلم دون فائدة حتى بدأ ابن الكرماني بعدئذ القتال وبأمر من أبي مسلم.

وسط هذه الظروف التي مر بها ابن سيار ووسط إدراكه لطبيعة التحالفات القائمة ومراميها البعيدة (الإطاحة بالخلافة الأموية)، يبدأ بالبحث عن النصرة عند رؤسائه وهم ابن هبيرة في العراق والي المشرق كله للخليفة وعند الخليفة شخصياً[١٩].

---

(١٧) ابن الأثير، ٥/٣٨٢.

(١٨) ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب، كتاب المحبر، المكتب التجاري، بيروت، دت، ص٤٥٠. أدرج ابن حبيب اسم المرزبانة ضمن عنوان «أسماء من تزوج ثلاثة أزواج فصاعداً من النساء، فذكر أنها تزوجت نصراً ثم أبا مسلم صاحب الدعوة، ثم عبدالجبار عبدالرحمن الأزدي، وينفرد ابن حبيب بذكر زواج المرزبانة من أبي مسلم.

(١٩) لمعرفة تفاصيل المراسلات والوفادات بين الفرقاء جميعاً في خراسان انظر كتاب «أخبار الدولة العباسية» لمؤلف مجهول، وعن أوضاع خراسان والاستقرار العربي فيها وأوضاع قبائلها المختلفة منذ الفتح وحتى الثورة، انظر كتاب محمد عبدالحي شعبان «الثورة العباسية»، إذ درس الدكتور شعبان في كتاب كامل أحداث الثورة العباسية عبر دراسة مفصلة لخراسان وولاتها وإدارتها ومواردها ووضع القبائل العربية فيها قيسيها ويمنيها، كما تعرض لحرب العصبيات في خراسان وإصلاحات هشام بن عبدالملك والتي يرى أنها كانت الأساس في خلق أوضاع استطاعت الدعاية العباسية داخلها من الحصول على أعوان من الجند المحارب الذين قذفت بهم إصلاحات هشام خارج ديوان الجند المعتمد على أساس تلك الإصلاحات التي رآها الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك. انظر كذلك فاروق عمر فوزي «طبيعة الدعوة العباسية» وفيه تفصيل جيد عن واجهات الثورة وتأكيد بالحجج والبراهين عن عروبة الثورة العباسية.

كان ابن سيار بثاقب بصره قد أدرك وعبر ما يطرح من شعارات من قبل دعاة الهاشمية، أن هدف هذه الدعوة ليس خراسان، إذ «لو كانت همتهم خراسان لهانت شوكتهم، لكنهم يريدون الغاية الكبرى من التملك على الآفاق في جميع بلاد المسلمين»(٢٠)، وبهذا المعنى الواضح كتب للخليفة كما كتب لابن هبيرة في العراق يطلب منهم المدد. لأن التحالفات التي احتشدت ضده كانت أكبر من قدرته على مجابهتها.

يورد المؤلف المجهول لأخبار الدولة العباسية ما يلي: «وجعل نصر يكتب لابن هبيرة، وهو على العراق يستمده فيعده ويأمره بالمدارات»(٢١). أما الطبري فيورد أن نصراً كتب إلى مروان بأمر أبي مسلم وكثرة من معه وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن علي العباسي(٢٢)، ولم تتطرق الرواية إلى كيفية معرفة ذلك.

وقد شاع الشعر الذي وصف به ابن سيار الأوضاع في خراسان، وتورد المصادر صيغاً مختلفة للشعر وعدد الأبيات المستشهد بها، لكن مضمونها يبقى على اختلاف الروايات وتنوعها شاهداً على شهرة الأبيات وتداولها:

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب مبدؤها الكلام

فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يقظت فذاك بقاء ملك ... وإن رقدت فإني لا أنام

وإن يك أصبحوا وثووا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

إذا لم تنهضوا طراً فقولوا ... على الإسلام والعرب السلام

(٢٠) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٥.
(٢١) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٤.
(٢٢) الطبري، ٧/ ٣١٤.

تصور الأبيات حال خراسان وعجز ابن سيار عن دفع القادم من الأحداث بعد أن استهلكته النزاعات العصبية مع اليمانية. ولو كان ابن سيار قادراً على دفع الأحداث دون حاجة إلى نجدة لما كتب لا للخليفة ولا لابن هبيرة وهو الذي أدار شؤون خراسان دون حاجة إلى نجدات منذ أن وليها عام ١٢٠ للهجرة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وتورد معظم المصادر والمراجع المعاصرة رد ابن هبيرة «لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل»[٢٣]، ولم يكن رد الخليفة على شعر ابن سيار يختلف عن رد ابن هبيرة وهو المؤمل الأقوى في النجدة فكان جوابه «الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول قبلك»[٢٤].

ونستطيع أن نتصور خيبة أمل ابن سيار من هذا الرد وكيف أنه بهذا الجواب لا يستطيع القضاء على مد الزحف الجارف كما نستطيع تصور المرارة الكامنة في الكلمات التي خرج بها على أعوانه ليقول لهم «أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده»[٢٥].

لكن هذا الرد الذي يورده الطبري وغيره وتلك المرارة التي تفوه بها ابن سيار لا ترد عند المؤلف المجهول لأخبار الدولة العباسية.

وباستعراض رد الفعل الذي يرويه المؤلف المجهول لا نلقى الخليفة مهملاً للأمر بل كان في غاية الاهتمام به لدرجة أنه يخطط عسكرياً لكيفية وصول النجدات لابن سيار. فهو يطمئن ابن سيار أولاً بأن «أمر ناحيتك على بال أمير المؤمنين»[٢٦] ثم يذكر له أنه أرسل له مدداً عسكرياً بقيادة قائدين

---

(٢٣) الطبري، ٧/ ٣٧٠.

(٢٤) الطبري، ٧/ ٣٦٩. ابن الأثير، ٥/ ٣٦٦. والثؤلول نبت جلدي خشن يظهر عادة على ظاهر الكف فيشوه منظره ويسبب حكة، ويتم التخلص منه بأساليب شتى منها العمليات الجراحية الصغيرة. والمعنى واضح هنا وهو أن ظهور أبي مسلم على مسرح الأحداث السياسية مزعج كالثؤلول ويحتاج إلى الحسم (الإزالة).

(٢٥) الطبري، ٧/ ٣٦٩. ابن الأثير، ٥/ ٣٦٦.

(٢٦) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٥.

لامعين هما نُباتة بن حنظلة وعامر بن ضبارة، لكنهما اضطرا أن يقاتلا فلول الخوارج وعبدالله بن معاوية في جهات فارس والأهواز، وطمأن الخليفة ابن سيار قائلاً «وكتبت إلى ابن هبيرة آمره باستحثاثهما باللحوق بك ودخول خراسان عليك فيمن معهما من خيول أمير المؤمنين من ناحية الطبسين، (بين نيسابور وأصبهان) وناحية سَجِسْتان، (جنوب هِرّاة إلى الجنوب الشرقي من قندهار) فكأنك بخيول أمير المؤمنين قد وردت عليك بأحسن عدة وأكثر عدد. فثق بالله وتوقع الإمداد والقوة فكأن قد غشيتك»(٢٧).

والملاحظ أن المدد الذي وعد به الخليفة هو مما يقع تحت إمرة ابن هبيرة، وربما كان عذر الخليفة في هذا التدبير هو أن خراسان تقع أولاً في نطاق مسؤوليات ابن هبيرة، وأنه يحث ابن هبيرة على ترك تلكئه عن نصرة ابن سيار، ولعل الخليفة لم يكن لديه ما يعزز به ابن سيار وقد «اشتغل عنه باختلال الجزيرة وأذربيجان»(٢٨) وما يزال يتوقع التمردات حوله رغم القضاء على معظمها بعد الاستيلاء على الخلافة، كما أن مروان سيشغل بعد قليل بحرب أبي حمزة الخارجي الذي ظهر في حضرموت واستولى على الخلافة، كما أن مروان سيشغل بعد قليل بحرب أبي حمزة الخارجي الذي ظهر في حضرموت وساتولى على صنعاء وأخذ بتهديد الحرمين الشريفين في الحجاز.

فهل كان هذا الموقف الذي يصوره المؤلف المجهول أول ردود فعل الخليفة مروان على رسائل ابن سيار؟ أم هناك خلط في ترتيب المواقف في المصادر؟

الظاهر أن هذا الموقف الذي يصوره المؤلف المجهول لم يكن رداً على

(٢٧) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٦. ما بين قوسين ( ) في النص توضيح من عندنا.

(٢٨) الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ١٢١–١٤٠، ط٢، دار الكتاب العربي، ١٩٩١، ص٥٥٢.

أول رسالة بعث بها ابن سيار، بل رد أمير المؤمنين على المكاتبات اللاحقة لسقوط مرو كما سنبين.

وتخلط المصادر أيضاً بشأن الذي كتب إليه ابن سيار أولاً يستنصره. من ذلك ما يرويه المسعودي من أن ابن سيار كتب إلى ابن هبيرة بعد أن يأس من إنجاد مروان له[٢٩]، ثم يورد ما أورد الطبري من شعر أرسله ابن سيار لابن هبيرة يستحثه النصرة والنجدة قبل فوات الأوان:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينت أن لا خير في الكذب

بأن أرض خراسان تركت بها بيضاً لو أفرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب

فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب[٣٠]

ويأتي رد ابن هبيرة مقتضباً كما أسلفنا «لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل». وهو رد يشي بأن ابن هبيرة لم يكن متحمساً لنجدة ابن سيار كي يدرأ الخطر المحدق به من جانب أهل اليمن وأنصار الثورة العباسية، فاعتذر بقلة الرجال.

وبغض النظر عن الجهة التي خاطبها ابن سيار أولاً، الخليفة أم ابن هبيرة، وبغض النظر أيضاً عن أيهما الذي يأس من نجدته فإن الواضح البيّن أن ابن سيار كان يكتب إلى الاثنين معاً، ولم يكن رد أحدهما بأحسن من الآخر، إذ اعتذر كلاهما بقلة الرجال لديه، كما اشتركا أول الأمر في عدم مشاطرة ابن سيار رؤيته للأمور وعدّا الأمر كله لا يخرج عن الثورات الكثيرة التي تحدث هنا وهناك كما حدثت قبل ذلك طوال العصر الأموي كله.

---

(٢٩) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، دار الكتب العلمية،، بيروت، دت، ص٢٥٧.

(٣٠) المسعودي، ص٢٥٧. الطبري، ص٣١٤.

وأن عليه أن يحسم أمر ناحيته بجنده. ولو قد قدر الخليفة أو ابن هبيرة الأمر كما أراد ابن سيار لكان لابن هبيرة أن يجمع تلك الجيوش الجرارة التي سنشاهدها بعد ذلك في وقعتي «جرجان» (بين طبرستان وخراسان) و«جابلق» (من ضواحي أصبهان) قبل استفحال الخطر، وسنلاحظ مع تفاقم الأحداث أن المد العسكري لم يكن ما ينقص الخلافة الأموية بل سوء العلاقة بين ابن هبيرة وابن سيار، وبالتالي سوء تقدير خطر الثورة في خراسان.

وقد أدى تجاهل استغاثات نصر إلى تطور الأحداث على نحو سريع، إذ تمكن أنصار أبي مسلم من دخول مرو وصارت نصفين بينه وبين ابن سيار. وفي الخطاب الجديد الذي وجهه ابن سيار لابن هبيرة ما يلي:

«قد أخرجت من بيتي إلى مقصورتي فاستغثت بكم، فلما أبطأ غياثكم وتأخرت مادتكم أخرجت من مقصورتي إلى ساحة داري، وإنكم إن تقاعدتم عني أخرجت من داري كلها، وإذا أخرجت منها دُخل عليك دارك، ولو دخلت جحراً لدخل عليك فيه حتى يؤتى عليك وعلى غيرك»[٣١] كما كتب لأمير المؤمنين بعد فراره من مرو ويأسه من نجدة ابن هبيرة على ما يظهر من النص التالي «كتبت إلى أمير المؤمنين ولم يبق مني شيء أستعين به على عدو أمير المؤمنين لا في رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي، ولو كنت أمددتني بألف فارس من أهل الشام لاكتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين. إني حين كتبت إلى أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني، فأنا واقف على باب داري، وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا إلى ابن هبيرة طردت عن باب داري، ثم لا رجوع إليها إلى ملتقى الحشر، فلا يكون مثل أمير المؤمنين ومثل ابن هبيرة كما قال الأول:

ولـو أنـي أطـيـعـك فـي أمـور تـنـاجـيـني إذن لـقـرعـت سـنـي»[٣٢]

(٣١) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣١٠.

(٣٢) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣١١.

وفي كتاب آخر للخليفة يصف له فيه الوضع وموقف قبائل اليمن منه يقول ابن سيار «أما بعد فإني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو على مجمع الطريق، ومحجة الناس العظمى من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق، في حائط قد خندقت فيه على نفسي ومن معي، وعن يميني وشمالي قرى بني تميم وسائر أحياء مضر ليس يشوبهم غيرهم إلا قرى على حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة، وفيها حل طاغيتهم أبو مسلم، فنحن حين كتبت إلى أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف، ونحن من إخواننا اليمانية وأغنامهم ورعاعهم، فيما نتوقع من سفههم ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث، على مثل لجة البحر وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين ومن معي على مثل ذلك لا نؤثر عليها شيئاً، وقد أملنا غياث أمير المؤمنين ومواده وورود خيله وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر على غشه وساع في خلافه فلا يكونن مثلنا يا أمير المؤمنين قول الأول:

لا أعرفنك بعد اليوم تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

إنه قد بلغ الحزام الطبيين، وكادت القلوب تبلغ الحناجر، فلا يتهمني أمير المؤمنين على ما أكتب به وأغلظ له فيه، إني لكما قال الأول: أحلب حلبا لك شطره، ولئن أزالنا عدونا من موضعنا الذي نحن به، فإنها زلزلة سرير أمير المؤمنين، فلا يضعن أمير المؤمنين كتابي هذا إليه على الجزع وعلى الجرأة عليه، لأنه لا مخبأ لعطر بعد عروس، ومثلنا فيما قد أشرفنا عليه كمثل شجرة على ضفة البحر، قد بلي أصلها، فالأمواج تضربها من كل وجه، فما بقاؤها بعد فساد أصلها، وإلحاح الأمواج عليها[٣٣].

هذه نصوص ثمينة ينفرد بها المؤلف المجهول وهي تشرح بوضوح حال ابن سيار في خراسان وحاله مع رؤسائه في العراق وحران ويحذر من مغبة التراخي عن إمداده وإن المقصود بما يجري في خراسان إنما هو

(٣٣) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣١٢-٣١٣.

قاعدة الخلافة «سرير أمير المؤمنين»، كما يطالب صراحة بأن لا يكله الخليفة لابن هبيرة فقد يأس ابن سيار من نجدته، وأن ابن سيار يكتب الآن وقد صار حاله إلى التشبيهات التي استخدمها وأنه أخرج من جميع سلطانه وصار يقف على باب داره، ولئن لم تأته النجدة فوراً فلا باب ولا دار ولا سلطان، بل إنها مقدمة ذهاب سرير الملك عن بني أمية.

ويبدو أن هذه المراسلات ووقائع الاستيلاء على مرو والهزائم اللاحقة هي التي أقنعت الخليفة بالتحرك لإنقاذ الوضع في خراسان، وفي هذا الإطار نستطيع أن نتصور رد الخليفة السالف الذكر وأنه سيرسل المدد العسكري إليه، وقد بالغ في طمأنه ابن سيار وحثه على التصرف وكأن المدد قد وصله فعلاً «فكأن قد غشيتك».

عبدالحميد الكاتب وابن سيار:

وقبل المضي في متابعة الأحداث اللاحقة لا بد من مناقشة موقف عبدالحميد الكاتب من ابن سيار، وهو كاتب الخليفة مروان ومن أشهر كتّاب الخلافة الأموية قاطبة، وله رأي مسموع عند الخليفة. يورد المؤلف المجهول له موقفين في سياق العلاقة بهذه الأحداث، أحدهما بعد ورود الرسائل الأولى من ابن سيار حيث يتحمس ويكتب إلى أحد أصدقائه كامل بن مظفر يحثه على التخلي عن دعوة المسودة والعودة إلى طاعة أمير المؤمنين(٣٤)، والثاني بعد وصول كتب ابن سيار الأخيرة التي تحذر من ضياع الخلافة كلها، حيث يصور الخليفة مروان مطرقاً بحضرة عبدالحميد الكاتب الذي يرى أن ابن سيار قد أفسد خراسان، ثم يرى أن صراحته في وصف موقف قبائل اليمن بالسفاهة كما يرد في خطابه لأمير المؤمنين تشي بأقوال لابن سيار بين العامة في خراسان أوحش وأشنع، وبناء على هذا الاستنتاج يقترح عبدالحميد الكاتب عزل ابن سيار عن خراسان وتوليتها نُباتة بن حنظلة أو عامر بن

(٣٤) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٠٦.

ضبارة وكلاهما عسكري لامع وتحت إمرة ابن هبيرة في العراق، ثم تضيف الرواية أن مروان كتب لابن هبيرة في توليه نُباتة خراسان وإمضائه إليها[٣٥].

ولا بد من مناقشة الروايات المتعلقة بعزل ابن سيار وبخاصة أن بعض المعاصرين قد أخذ بها، ورآها ضربة قاصمة ضد ابن سيار[٣٦]. الواقع أن هذه الأخبار عن عزل ابن سيار لا يمكن الأخذ بها، في إطار ما قدمه عبدالحميد الكاتب من حجج، فابن سيار وبمقاييس الولاية آنئذ وال ناجح في خراسان منذ عشر سنين، وهو كما يصفه الجاحظ في معرض حديثه عن الخطباء الشعراء «من أصحاب الولايات والحروب في التدبير، وفي العقل وشدة الرأي»[٣٧]. «وهو من رجال الدهر سؤددا وكفاءة»[٣٨] كما أنه على معرفة وافية بطبيعة البلاد والعباد فيها، ثم إن تصريحه عن مواقف القبائل اليمنية وربيعة وإن استخدم ألفاظاً قاسية، مما هو شائع الاستخدام على العموم في ذلك الوقت، وبعد أن بذل عبثاً جهوداً مخلصة لرأب الصدع بينه وبينهم لدرجة أن يقبل إعطاء ابن الكرماني، زعيم اليمانية، القيادة والنهي والأمر فيما يرى من أمور، بل والزواج المتبادل بينهما لتمتين الصلة بحبل النسب[٣٩]، كما حاول شحذ الهمم وإثارة النخوة بأشعار كثيرة دون فائدة، منها:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب[٤٠]

---

(٣٥) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣١٤.

(٣٦) الخطيب، عبدالله مهدي، الحكم الأموي في خراسان، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٠٣. عبدالحليم، رضى عبدالله، دراسات في تاريخ خراسان في العصر الأموي، دار الأندلس للأعلام، القاهرة، ١٩٨٧، ص٩٧.

(٣٧) الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، البيان والتبيين، ج١، ط٤، دار الفكر، بيروت، دت، ص٤٨.

(٣٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٥، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢، ص٤٦٤.

(٣٩) الدينوري، ص٣٥٦.

(٤٠) ابن الأثير، ٥/٣٦٧. وعند الدينوري ترد البيت كالتالي:

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب

ولا نعتقد أن كل تلك الجهود كانت غائبة عن كاتب الخليفة وأمين سره، لكن موقفه هذا يقنع أنه لم يكن على صلة جيدة بابن سيار ولا يستبعد أن يكون داخلاً في اتفاق مع ابن هبيرة في العراق ليشاطره رأيه بابن سيار فساهم في إيغار صدر الخليفة. وفي إشارة نادرة إلى من يتحمل وزر سقوط خراسان وذهاب ملك بني أمية، يورد الجاحظ ذماً للكاتب عبدالحميد ويحمله الوزر ويقول في «ذم أخلاق الكتاب» «إن عبدالحميد الكاتب كان معلِّماً، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان وزال ملك بني أمية»(٤١). ونحن هنا لن نشايع الجاحظ في رأيه المتعلق بوزر ضياع خراسان، وتكفينا ما فيه من دلالة على موقف عبدالحميد الكاتب من نصر وأن نصيحته للخليفة بعزل ابن سيار بدلاً من إرسال الإمداد إنما تأتي في إطار الضغائن الشخصية وليس لمصلحة خراسان. ثم ما الحاجة إلى العزل إن كان ابن سيار قد طرد من ولايته أصلاً، صارت في يد غيره، وإن صوت استغاثاته إنما علا وهو بنيسابور، ثم متى كانت العصبية مما يحاسب عليه أحد زمن بني أمية والخليفة مروان نفسه بعد مقتل الوليد بن يزيد يعتمد عصبية قيسية حيث نصر بن سيار وابن هبيرة ركنان أساسيان فيها. أضف إلى ذلك أن بعض المصادر تذكر صراحة أن نُباتة بن حنظلة، وهو المرشح للولاية كما اقترح عبدالحميد الكاتب، إنما توجه إلى جرجان والياً عليها(٤٢). زد على ذلك أن ابن خياط يذكر في تاريخه بين ولاة مروان بن محمد نصر بن سيار كوال على خراسان حتى أخرجه منها أبو مسلم(٤٣)، ولم يذكر والياً آخر بعد

(٤١) الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، رسائل الجاحظ، ج٢، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص٢٠٢.

(٤٢) الطبري، ٣٩١/٧. المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، ج٦، دار صادر بيروت، مصور عن طبعة عام ١٨٩٩، ص٦٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٧.

(٤٣) ابن خياط، ص٤٠٦.

ذلك. ومثله يفعل الطبري والذي، كعادته، ختم أحداث عام ١٣٠هـ بذكر ولاية ابن سيار على خراسان، وأهمل ذكر خراسان للعام التالي جملة لأنها كانت قد خرجت عن الخلافة الأموية أصلاً[٤٤].

والراجح أن الخليفة مروان لم يعزل نصراً، لأن الأحداث والمراسلات التي تتم بعد ذلك لا تؤيد هذه الرواية ويمكن أن يكون الأمر كله داخلاً ضمن الدعاية السياسية التي بثها ابن هبيرة ضد ابن سيار، كما تدل على ذلك مجمل الأحداث. وسندرك في الصفحات القادمة عدم دقة الروايات التي تتحدث عن عزله.

حملة نُباتة بن حنظلة وصلتها بابن سيار:

ولم يدرك ابن سيار، رغم كل ما يجري، قنوط من مدد يأتيه بعد تراجعه من نيسابور إلى قومس، (جنوب جرجان وبين نيسابور والري) كما أنه رغم علمه بمجافاة ابن هبيرة له لم يستنكف الكتابة إليه ثانية «يستمده وهو بواسط مع ناس من وجوه أهل خراسان، يعظم إليه الأمر»[٤٥].

وهنا تنكشف سوء العلاقة بين الرجلين جلية دون مواربة، إذ بدلاً من الاستجابة للطلب يأمر ابن هبيرة بحبس رسل ابن سيار، وفي هذا من تجاوز الأخلاق الخاصة بتكريم الرسل ولو كانوا أعداء ما يشير إلى درجة التنافر ببن الرجلين. ويبدو أن حبس الرسل إنما كان تالياً لحبس أخبار ابن سيار عن الخليفة، فإلى ذلك يشير الجاحظ أيضاً في رسائله حين يذكر «ولما رأى نصر أن يزيد بن عمر يميت أخباره ليموت ذكره عند الخليفة كتب إليه»[٤٦]. وقد ظلت هذه الأخبار تتواتر لنجد صداها في أقصى المغرب، في الأندلس عند ابن عبد ربه، فيعلق في عقده صدى الروايات التي وصلته وفيها

(٤٤) الطبري، ٧/٤٠٢، ٤١١.
(٤٥) الطبري، ٧/٤٠١.
(٤٦) الجاحظ، ص٢٠٢.

حبس ابن هبيرة لأخبار ابن سيار عن الخليفة، مضيفاً إلى ذلك أن ابن هبيرة كان شديد الحسد لمقام نصر عند الخليفة(٤٧).

يكتب ابن سيار بعد ذلك إلى الخليفة شاكياً رئيسه ابن هبيرة، ويبين رؤيته للأمور فيذكر «إني وجهت إلى ابن هبيرة قوماً من وجوه أهل خراسان ليعلموه أمر الناس من قبلنا، وسألته المدد فاحتبس رسلي ولم يمدني بأحد؛ وإنما أنا بمنزلة من أخرج من بيته إلى حجرته، ثم أخرج من حجرته إلى داره، ثم أخرج من داره إلى فناء داره؛ فإن أدركه من يعينه فعسى أن يعود إلى داره وتبقى له؛ وإن أخرج من داره إلى الطريق فلا دار له ولا فناء»(٤٨).

ويبدو أنه حتى هذه اللحظة لم يدر بخلد مروان بن محمد ووالية ابن هبيرة شيء عن المدى الذي يمكن لهذا الزحف القادم من خراسان أن يبلغه، وبخاصة أنّ الروايات تفيد انكشاف أمر الإمام المستور. وحده نصر بن سيار كان قد حذر منه وهو الآن في رسالته هذه يزيد الأمر وضوحاً وإن قَصر الحديث على نفسه وإنه بات في العراء بلا دار ولا فناء، لكن العبرة غير بعيدة وأن ابن هبيرة والخليفة نفسه سيدركهما نفس المصير وإن لم يذكر ذلك صراحة.

أعطى الخليفة لرسالة ابن سيار هذه وبسبب تصاعد الأحداث اهتماماً واضحاً فكتب إلى ابن هبيرة يأمره بمد ابن سيار كما كتب لابن سيار يعلمه بالأمر:

«إن نصر بن سيار كتب إلى أمير المؤمنين من تجمع من أعداء الله من شرار العجم وسقاط العرب. ويشكو سوء إجابتك إياه وتثاقلك عن إمداده فما أكثر استزادة أمير المؤمنين لك في كل ما يأمرك وينهاك عنه فإذا نظرت في كتاب أمير المؤمنين فسرب إلى نصر الجموع بعد الجموع ثم أتبعهم القوة

(٤٧) ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مج٤، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأخيرة ١٩٩٩، ص٢٣١.

(٤٨) الطبري، ٧/٤٠١.

بعد القوة وسرح من ولدك أحمدهم عندك عقلاً وأصحهم نية في جهاد عدو أمير المؤمنين وولِّه أمر ذلك الجند. ومُره بحسن سياستهم والرفق بهم حتى يكون لهم كالوالد الشفيق أو المؤدب الرقيق حتى لا يدخله سأم فيما يحاول من مصلحتهم ثم آثرهم بما يجتمع عندك من الفيء فإنهم أحق به ممن أقام ولم يصل بالحرب. فإنَّ أمر خراسان قد تفاقم واشتدت شوكة من يجتمع هناك واستولت السفلة على الأخيار وعلى أهل الدين والحسب للذي كان ابتلاهم به من الفرقة والتباين فأبدلهم الله بذلك مذلة الأرباب وربوبية العبيد. وفي تعجيلك الجنود عز لأهل الطاعة وذل لأهل المعصية. فاستدرك ما قد تفاوت من تفريطك فإن العراق لك مدد والأموال لديك كثيرة غير مقبوضة يدك عنها ولا يحال بينك وبينها»[٤٩].

وتظهر رسالة الخليفة بوضوح أنه قد وقر في قلبه أن ابن هبيرة يتعمد عدم إرسال المدد لابن سيار وأنه لا يجيب الخليفة إلى طلبه إلا بعد إلحاح وأن حجته بنقص الرجال لديه لم تكن مقبولة بقول، ولكنه مع ذلك رأى ثورة خراسان ثورة من «شرار العجم وسقاط العرب» ويرجح أن هذه الرسالة هي التي وجهها الخليفة لابن هبيرة والتي على أساسها جهز ابن هبيرة حملة نُباتة بن حنظلة إلى جرجان، ثم إنه حتى تاريخ هذه الرسالة رغم إقراره بتفاقم وضع خراسان، رأى أن في العراق من المدد ما يكفي لإعادة الهدوء والسيادة ثانية، لكن ابن هبيرة يعتذر عن ذلك مشيراً إلى أن من لديه الرجال لا يبلغون اثني عشر ألفاً، وإن التجنيد من عرب الشام أفضل من عرب العراق، لأن عرب العراق «ليست لهم نصيحة للخلفاء من بني أمية وفي قلوبهم إحن»[٥٠].. وقد كتب الخليفة يعلم ابن سيار بمخاطبته ابن هبيرة في الأمر. واستعجل ابن سيار المدد وكتب ثانية إلى ابن هبيرة يوقفه على

(٤٩) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٢٥-٣٢٦.
(٥٠) الدينوري، ص٣٦٠.

الوضع وأنه يصبر أهل خراسان بوعدهم بالمدد منذ حين حتى إنهم لم يعودوا يصدقوا له قولاً «فأمدني بعشرة آلاف قبل أن تمدني بمائة ألف ثم لا تغني شيئاً»(٥١).

في هذه السطور تطفو ثانية مرارة ابن سيار من تقاعس ابن هبيرة عن نصرته، وأن ابن سيار، لو كان ابن هبيرة جاداً في نصرته، سيقنع بالقليل من الجند يأتون في وقتهم ليدرأ بهم خطراً محققاً، خير من التعلل بالقلة وانتظار كثرة لا تغني بعد فوات الأوان شيئاً.

يذعن ابن هبيرة أخيراً لأمر الخليفة فيعد حملة بقيادة نُباتة بن حنظلة لنجدة الموقف في خراسان كي لا نقول لنجدة ابن سيار، إذ اختطت الحملة لنفسها طريقاً مستقلاً لا علاقة له بابن سيار.

يعلم ابن سيار بقدوم نُباتة بن حنظلة كما يعلم أيضاً بأن وجهته ليست معسكر ابن سيار لإخراجه مما هو فيه، بل يتجه نُباتة بقواته الكثيفة صوب الري أولاً قبل أن يصل جرجان. وقد كتب ابن سيار يطلب من ابن هبيرة أن يكتب إلى نُباتة لينضوي تحت لوائه ويأتمر بأمره، لأنهم لم يعد لهم جمع يعتمدون عليه، لكن ابن هبيرة يخيب آمال ابن سيار ثانية وينقل عنه قوله «ما كنت لأولي مثل نصر على نُباتة، وإنما نحن في إصلاح ما أفسد نصر»(٥٢) ويبين كتاب نصر ورد ابن هبيرة أن مسألة العزل لم تكن أكثر من شائعة، فلو قد عزل ابن سيار وبين الرجلين من الجفوة ما هو معلوم، لما كتب لابن هبيرة بأمر نُباتة، ولجاء جواب ابن هبيرة بهذا المعنى. ويبقى رفض ابن هبيرة إعطاء الإمرة لابن سيار على نُباتة دليلاً على نفور الرجلين من بعضهما، الأمر الذي ساهم في تشتيت القوات الأموية وسهل هزيمتها.

وهناك روايات عند الطبري وابن الأثير وصاحب العيون والحدائق تقدم صورة أخرى لعلاقة ابن سيار بحملة نُباتة بن حنظلة إلى جرجان. فابن

(٥١) الطبري، ٤٠٢/٧.

(٥٢) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٢٣.

الأثير يذكر أن ابن هبيرة بعث نُباتة إلى نصر فاختار التوجه إلى جرجان بدلاً من قومس حيث ابن سيار لأن قومس لن تسعهم وأن ابن سيار توجه بعد ذلك «إلى جرجان فنزلها مع نُباتة وخندقوا عليهم»[٥٣]. وعند الطبري أن ابن سيار بعد أن بلغته أخبار هزيمة جيشه ومقتل ابنه في محيط نيسابور ارتحل هارباً إلى قومس »وتفرق عنه أصحابه، فسار إلى نُباتة بن حنظلة بجرجان»[٥٤]، لكن رواية الطبري تجعل فكرة الارتحال عن قومس إلى جرجان لعدم سعتها حجة للقيسية وليس لنُباتة كما عند ابن الأثير «قالت القيسية لنصر: لا تحملنا قومس، فتحولوا إلى جرجان»[٥٥]. ويتفق صاحب العيون والحدائق مع ما أورده الطبري فيذكر أنه بعد انهزام تميم بن سيار في جهات نيسابور هرب ابن سيار وتفرق عنه الناس وقاده هربه إلى جرجان حيث نُباتة بن حنظلة قد وصل بجيش كبير مدداً لابن سيار بعد أن تتابعت كتبه إلى العراق يطلب النجدة[٥٦]. ولا يذكر صاحب العيون والحدائق شيئاً عن علاقة ابن سيار بابن هبيرة كما مرت بنا، لكنه يصور ظروف نصر التي ألجأته إلى نُباتة فيذكر أن جيش نُباتة توجه إلى جرجان «ولم ينضم إلى نصر أحد لما عرف من الأحوال فلما انهزم نصر من قُحطبة مضى نصر بنفسه إلى نُباتة وهو بجرجان فاجتمعا وسار إليهما قُحطبة»[٥٧] ثم

(٥٣) ابن الأثير، ٥/٣٨٧.

(٥٤) الطبري، ٧/ ٣٩٠.

(٥٥) الطبري، ٧/٣٩١.

(٥٦) مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، من خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم، ج٣، دار بريل للنشر، هولندا، ١٨٦٩. وعند الدينوري في الأخبار الطوال، ص٣٥٥ يذكر أن مقتل تميم كان في حرب مع اليمانية وحلفائهم من ربيعة وأن الذي قتله هو محمد بن المثنى الربعي. ويبدو أن مقتل تميم كان على يد هذا المذكور في الحرب الذي تزعمها قحطبة، وبخاصة أن الدينوري في أخباره الطوال يقتضب الأخبار اقتضاباً.

(٥٧) مجهول، العيون والحدائق، ص١٩٢.

يذكر بعد ذلك هزيمة نُباتة ومقتله وانهزام نصر بن سيار إلى خوار الري ومن هناك يرتحل نصر إلى همذان فيمرض في الطريق ويموت(٥٨). وينقل ابن خلدون هذه الأخبار عن الأوائل دون التمحيص المتوقع، فيثبت أن ابن سيار ارتحل هارباً إلى قومس ثم ذهب إلى نُباتة بجرجان، وبعد قليل يتحدث عن ارتحال نصر من قومس دون الحديث عن كيفية عودة نصر إلى الري(٥٩).

وقد أخذ بعض المعاصرين بهذه الروايات دون مناقشة، ورأى أن ابن سيار قد اضطر للحاق بنُباتة في جرجان(٦٠). الواقع أن هذه الأخبار توقعنا في حيرة، فلو أخذنا بسياق الأخبار العامة في المصادر الأخرى وهي الأكثر إحصائياً فسنستنتج أن هذه الروايات غير دقيقة فيما يتعلق بأخبار نصر وصلاته بحملة نُباتة بن حنظلة، وإن نظرنا إلى المبررات المقدمة وهي انفضاض الناس عن نصر واضطراره للحاق بنُباتة إلى جرجان دون إشارة مع ذلك إلى مشكلة القيادة التي أبرزتها الروايات الأخرى، فإن هذا متوقع فقط ضمن علاقات ودية وتفهم كبير لمشاكل ابن سيار، ولم يكن هذا قائماً كما مر بنا. ثم إن هذه الروايات تفترض أن نصراً كان مرحباً به في جيش نُباتة، ولو كان الأمر كذلك لظهر ما هو بديهي بين الجيشين وهو أن يتفقا على عمل عسكري يشتت القوات الهاشمية ويسهل هزيمتها، أو حتى سنقرأ عن قيادة لنصر في ميمنة الجيش أو ميسرته. كما أننا نتوقع في مثل هذه الحال أن يكون نصر، وإن فاتته القيادة، صاحب مشورة مسموعة بحكم

(٥٨) مجهول، العيون والحدائق، ص١٩٢.

(٥٩) ابن خلدون، عبدالرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٥، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ١٩٩٩، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٦٠) الخطيب، عبدالله مهدي، ص٢٠١. حافظ عرفه، ثريا، الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي، ط١، سلسلة رسائل جامعية، السعودية، ١٩٨٢، ص٦٩.

صلته بالأمور ومعرفته بطرق تفكير خصومه، ولم يظهر شيء من هذا أيضاً، ثم إن مقتل نُباتة في جرجان مع بقاء ابن سيار حياً يجعل من البديهي أن يكون ابن سيار وهو الوالي والمقصود بالمدد أصلاً قائداً لفلول الجيش المنهزم، وليس شيء من هذا يذكر بعد انجلاء المعركة، بل نجد ابن سيار بتصوير هذه الروايات، وحيداً يذهب إلى جرجان ووحيداً يعود إلى خوار الري، ومنها يتخذ طريقه إلى همذان حيث يدركه الموت بالقرب من ساوه.

وعند الطبري رواية أخرى نراها أكثر انسجاماً مع الأحداث وفيها أن ابن سيار بلغته أخبار مقتل نُباتة وهو في قومس فارتحل عنها إلى خوار الري(٦١). زد على ذلك أن قُحطبة قد رفض أمر أبي مسلم بالاستمرار في مطاردة نصر إلى قومس بعد هزيمة جيشه ومقتل ولده في جهات نيسابور، محتجاً بالقول: «ما كنت أمضي إلى نصر وهو فل، أدع خلفي نُباتة في فرسان أهل الشام وأهل خراسان»(٦٢).

وأخذاً بعين الاعتبار حديث قُحطبة عن «جند الشام وأهل خراسان» في جوابه السالف الذكر لأبي مسلم وما ذكر من تفرق أصحاب نصر عنه نرى أن قسماً من قوات خراسان هي التي ذهبت إلى جرجان وليس نصراً، وأن الروايات التي تخبر عن ذهاب نصر بنفسه إلى جرجان لا يمكن الأخذ بها، خاصة وسواد الروايات الأخرى يصرح حيناً ويلمح أخرى بما بين ابن سيار وابن هبيرة ورجاله من جفاء، وباستبعاد صحة هذه الروايات تستقيم باقي الأحداث ضمن الروايات الأخرى التي استعرضناها.

عسكر نُباتة أولاً في الري ثم اتجه إلى جرجان وتنضم إليه بقية من جند خراسان هناك، لكن الواضح أن أغلبية تلك البقية ترفض إمرته فيعاقبها بإسقاط أرزاقها من ديوان الجند. ويعلم ابن سيار بالأمر ويأتي تعليقه في غاية البداهة، معززاً لصورة التنافر والعداء بين الرجلين «هذا عن رأي ابن

(٦١) الطبري، ٧/٤٠١.

(٦٢) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٢٨.

هبيرة، ولئن ظن ابن القرعاء أني أقاتل عنه وأنقاد لنباتة لبئس ما ظن»[٦٣]. وهذا يعني أن نصراً وهو الوالي وصاحب خراسان لعشر سنين مضت لن يكون مستعداً للقتال تحت راية ابن هبيرة، وبخاصة أن نصراً يرى أن ابن هبيرة يقتحم مجال ولايته ليربك تصوراته عن المواجهة لو أنه أُنْجِدَ برجال في الوقت المناسب فهو أدرى بأحوال خراسان من ابن هبيرة ورجاله.

تتجه حملة نُباتة بعد ذلك إلى جرجان[٦٤] حيث تخندق هناك انتظاراً لمعركة مستقلة لا دخل لابن سيار بها، وليس من مبرر لذهاب الحملة إلى جرجان الواقعة شمال الري وغرب نيسابور إلا في إطار تولية نُباتة على جرجان كما مر بنا، وليس بمستبعد أن يكون ابن حنظلة قد تجنب اللقاء بابن سيار الذي فر إلى نيسابور وبعدها إلى قومس القريبة من الري. ويبدو أن خط سير هذه الحملة لم يكن يهدد مرو مباشرة لكنه يهدد صلة مرو بقواتها الزاحفة صوب العراق وهو ما حفز قُحطبة لترك نصر المنهزم والتوجه إلى جرجان لملاقاة جيش نُباتة بن حنظلة.

ولا شك في أن ابن هبيرة قد أمل أن يحرز نُباتة نصراً عسكرياً بعيداً عن ابن سيار ليذهب بمكرمة النصر المتوقع وليظهر بعدها عجز ابن سيار عن حسم الأمور. لكن عاقبة مثل هذه الأفكار التي لم تصرح بها المصادر بل مجريات الأمور، هي الفشل الذريع والهزيمة المنكرة وسقوط رأس نُباتة رجل ابن هبيرة في ساحة المعركة في الثالث من ذي الحجة من عام ١٣٠هـ[٦٥] (٦/٨/٧٤٨م) أي بعد أكثر من عام من ظهور أبي مسلم في مرو، وعليه نستطيع تصور مدى التراخي عن نصرة ابن سيار رغم استغاثاته المتكررة.

---

(٦٣) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٢٨.

(٦٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مج٢، دارصدار، بيروت، دت، ص٣٤١. الطبري، ج٧، ص٣٢٧.

(٦٥) ابن خياط، تاريخ خليفة، ص٣٩١.

واللافت في هذه المواجهة الجدية الأولى بين القوات الأموية وقوات المسودة هي الدعاية السياسية التي رافقت حملة العباسيين إلى جرجان، حيث حرصوا على رفع معنويات جنودهم بتصوير قوات الأمويين على أنها قوات قوم «أحرقوا بيت الله عز وجل»[٦٦]. كما حرص أبو مسلم على توجيه خطاب لقائد القوات العباسية قحطبة يحثه فيه على مناهضة العدو وعلى الإثخان في القتل حال النصر، كما حرص القائد العباسي قُحطبة على إلقاء خطبة يبشر بها جنوده بالنصر ويزيد من حماسهم يوم التقى الجمعان ودارت الدائرة على جيش ابن هبيرة وقتل قائده.

ما بعد وقعة جرجان ونهاية ابن سيار:

ارتحل نصر من قومس بعد هزيمة جيش ابن هبيرة في جرجان ومقتل قائده صوب خُوار الري فيرسل قُحطبة بن شبيب ابنه الحسن إلى قومس فيدخلها، ثم يعزز بإرسال قائدين وبضع مئات من الجند إلى ابنه لكن أحد القائدين وهو أبو كامل ينحاز بجنده إلى ابن سيار ويكشف له مكان القائد الآخر وهي إشارة نادرة إلى طبيعة الجيش العباسي الظافر حيث لم ترد روايات تصف أية تمردات فيه، كما أن المصادر هنا لم تفصح عن سبب انحياز أبي كامل لابن سيار لكننا على أية حال في مسرح أحداث حيث الولاءات تتغير ضمن معايير النسب والقبيلة وتقدير المواقف.

ومما يشير إلى أن ابن سيار لم يستسلم للمجريات بسهولة حتى وهو يقدر خطورة الموقف هو إعاقته لقوات القائد الثاني المرسل مدداً للحسن بن قُحطبة في قومس فيرسل ابن سيار قوة تتمكن من محاصرة المدد في حائط لبعض الوقت إذ تتمكن القوات من الإفلات بعدئذ وترك بعض متاعها فيغنمه ابن سيار ويرسل به إلى ابن هبيرة.

وثانية نرى ابن سيار يطمح في استرضاء ابن هبيرة لإنقاذ الوضع فيرسل لرئيسه ما غنمه من متاع في حملة صغيرة ليظهر له الطاعة وليحثه

(٦٦) الطبري، ٧/ ٣٩١.

أكثر على إرسال مدد حقيقي لوقف الزحف، لكن هذه النية الخيرة والأمل العزيز الذي استمسك به نصر لم يجد نفعاً، فقد اعترض عطيف(٦٧) بن بشر، أحد رجال ابن هبيرة رسل ابن سيار في منطقة الري وانتزع منهم المتاع وتكفل هو ببعثه إلى ابن هبيرة، وتتحدث المصادر أن عطيفاً هذا كان قد أرسل مدداً لابن سيار بعد هزيمة نُباتة، لكنه هو الآخر لا يذهب إلى نصر بل يعترض رسله ويسيء معاملتهم، وهي حادثة تثبت ثانية أن العلاقة بين الرجلين لم تكن فقط سيئة، بل مشهورة إلى الحد الذي يتجرأ فيه رجل لابن هبيرة في التعدي على رسل ابن سيار وهو من هو في بأسه وسجل حياته. كما أن تعليق نصر الغاضب على ما حدث يكشف بجلاء إضافي طبيعة العلاقة بين الرجلين «أبي يتلعب ابن هبيرة! أيشغب علي بضغابيس (=بضعاف) قيس! أما والله لأدعنه فليعرفن أنه ليس بشيء ولا ابنه الذي تربص له الأشياء»(٦٨)، ثم أن وقفة قصيرة مع هذا النص الغاضب تمنحنا رؤية أفضل لمجريات الأمور، فهناك تأكيد سوء العلاقة بينهما، ثم إنها مؤسسة على الطموح في تسنم المناصب ونيل الحظوة عند أهل الخلافة، فيشير ابن سيار إلى أن ابن هبيرة يبالغ في تقدير مقامه وطموحه وهو يريد أن يظهر له أنه ليس لما يطمح له أهلاً، وهو بهذا النص – في تأكيد جديد على استمرار ولايته لخراسان – يهدد بترك الأمور لابن هبيرة وابنه ليرى

(٦٧) يرد اسم هذا الرجل بأشكال كثيرة تارة عطيف وأخرى ابن عطيف، وتارة ثالثة ابن غطيف، ويبدو أننا أمام شخص واحد في كل الأحوال، ومثلما اختلطت الأسماء اختلطت كذلك الأحداث فكتب المتأخرون ما استبقته ذاكرتهم، إذ يذكر ابن عمر البغدادي (ت١٠٩٣) صاحب خزانة الأدب أن ابن عطيف بن بشر ويسميه ابن غطيف هو أول مدد لابن هبيرة كما يظهرون غير مهتمين بتسلسل الأحداث، لكنه مع ذلك يشير إلى تباطؤ ابن هبيرة عن إمداد نصر. ابن عمر البغدادي، عبدالقادر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٢، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٢٢٣.

(٦٨) الطبري، ٤٠٣/٧.

ما سيستطيعانه. وقد كشف ابن سيار إدراكه لطموح ابن هبيرة وإن لم يكن بوضوح كاف فبإيماءة ساطعة، وهو التخطيط كي يصير لابنه داود شأن ودور، وبخاصة إذ قتل نُباتة «والله لأدعنه فليعرفن أنه ليس بشيء ولا ابنه الذي تربص له الأشياء». ولم يكن ابن هبيرة ليجد فرصة أفضل من هذه حيث يظهر ابن سيار عاجزاً مدحوراً ليظهر ابن هبيرة ولده في الحملات ليعلو شأنه لدى الخليفة ويقتنع بمنحه إمارة هنا أو هناك. ويبدو أن ابن هبيرة قد حاول إبراز ولده داود في غير أوانه، إذ يذكر اليعقوبي في تاريخه، أن ابن هبيرة جهز حيشاً ضخماً فيه قواد كبار مثل نُباتة بن حنظلة وعامر بن ضبارة وجعل ابنه داود على رأس هذا الجيش، لكن الخليفة مروان، وقد أدرك حداثة سن داود وقلة خبرته بالقيادة، كتب إلى ابن هبيرة «ينكر عقده لابنه داود لحداثة سنه، ويأمره أن ينفذ إليه من يحل لواءه، ويعقد لعامر بن ضبارة المري على الجيش»[٦٩]، وبغض النظر عن تفاصيل الرواية إلا أنها تخبرنا بجلاء عن طموحات ابن هبيرة في ابنه داود وهو ما لم يكن خافياً على ابن سيار فكان تعليقه السالف مبنياً عليه. كما أن طموح ابن سيار في جعل ولده تميم – قبل مقتله – يخلفه في خراسان لا يمكن إغفاله أيضاً. ولا أظننا بحاجة إلى دليل كي نؤيد هذه الأقوال فكل التاريخ الأموي يشهد – وبحكم سيادة فكرة العشيرة والقبيلة – بأن أسراً كاملة مثل آل ثقيف وآل القسري وآل المهلب لعبت الأدوار المهمة في مراحل الخلافة الأموية المختلفة وليس فرادى الناس.

ونستطيع لذلك أن نتصور أن ابن هبيرة قد نظر بعين الرضى لمقتل تميم بن نصر ولاندحار أبيه خطوة أخرى جنوباً نحو العراق، باتجاه الري، حيث عسكر عطيف بن بشر بقواته التي بلغت ثلاثة آلاف رجل. والذي سبق منه ما سبق من اعتراض وأسر رسل ابن سيار لابن هبيرة. ثم إنه أرسل

(٦٩) اليعقوبي، ص/٣٤١.

في الأصل مدداً لابن سيار لكن عطيفاً «نزل الري ولم يأت نصراً». وفي الري يلتقي ابن سيار بعطيف وقائد آخر هو أبو بكر بعدما عرف مصير حملة نُباتة المهين، ثم تصور رواية عند المؤرخ المجهول محاولة الرجلين، التقرب من ابن سيار، فيقترحان عليه الصمود في الري ومقاتلة الهاشمية وأنهم سيقفون معه بجيوشهما الحسنة الإعداد، ثم يأتي جوابه زفرة حسرة ولوم في وجوههم «تركتموني حتى صرت جسراً قلتم أقم، شأنكم بالقوم، أما أنا فقد أعذرت»(٧٠) وهي كلمات أو خلاصة ألم عميق تشرح الموقف كله. فابن سيار وبعدما رأى من ابن هبيرة وغياب الخليفة عن مسرح الأحداث برأي قوي أو قوة فاعلة يقرر نفض يده من كل شيء مطمئناً هادئ البال بعدما بذل «أما أنا فقد أعذرت» وعليكم أنتم الآن مجابهة الزحف، ويحاول أحدهم إقناعه بالبقاء، بل، وكما تمضي الرواية، ينقل له رسالة من ابن هبيرة فيها «أقم بموضعك فقد أظلتك الأمداد»(٧١). وهذا يعني أننا أمام موقف جديد لابن هبيرة في هذه المرحلة من تطور الأحداث. ولا مبرر لعدم تصديق مثل هذه الرواية بعد أن مني ابن هبيرة بهزيمة منكرة في جيش نباتة، ولعله أدرك بعدها ما كان يحذر منه ابن سيار كما أدرك أنه رغم شيخوخته ما يزال القادر على مواجهة الأمورو لكنها يقظة في غير وقتها، تأتي بعدما صار ابن سيار بكلماته، جسراً عبرت عليه النوائب وأطرحته، فأبى أن يقيم وتوجه صوب همدان، كما خرجت من الري أيضاً جيوش الأمويين فلولاً بلا راعٍ أو قائد مجمع عليه والتحقت بآخر القواد العسكريين العظام عامر بن ضبارة بأصبهان، حيث ستجري بعد قليل في نواحيها معركة أخرى فاصلة.

ويبدو أن بلاد إيران الواقعة بين خراسان والعراق قد انقسمت من جهة أمراء الأقاليم بين مؤيد لهذا ومؤيد لذاك. وآية ذلك أن الطبري ينقل عن رواته أن نصراً عندما توجه إلى الري خرج منها عطيف بقواته التي أرسلت في

(٧٠) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٣٣.

(٧١) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٣٣.

الأصل مدداً لابن سيار واتجه صوب همذان «وفيها مالك بن أدهم بن محرز الباهلي على الصَّحْصَحِيَّة[٧٢]، فلما رأى مالكاً في همذان عدل منها إلى أصبهان إلى عامر بن ضبارة»[٧٣]. ورواية الطبري هذه تختلف عن رواية المؤلف المجهول الذي صور عطيفاً وقواداً آخرين يعرضون الانضمام تحت لواء نصر والقتال معه، ولعل ما يورده الطبري هنا من رحيل عطيف إلى أصبهان قد جاء بعد رفض ابن سيار لعرض الانضمام إليه أو انتظار مدد من ابن هبيرة. ومع ذلك فإن انحراف عطيف عن همذان إلى أصبهان غير مفهوم وبخاصة أن مالكاً كان من أعوان ابن هبيرة وأنه يستطيع أن يرجو عنده

(٧٢) فرقة أو كتيبة جيش قتالية وهو ما يقتضيه السياق أولاً، ثم لأن الجاحظ في البيان والتبيين ٣/١٧٥-١٧٦، يعدد الصَّحْصَحية ضمن أسماء فرق أخرى يفخر أهل خراسان بقتلهم «قالوا: ونحن قتلنا الصَّحْصَحية، والدالقية والذكوانية والراشدية، ونحن أصحاب الخنادق، ونباتة بن حنظلة، وعامر بن ضبارة، وأصحاب ابن هبيرة»، كما ترد الصحصحية أيضاً بوصفها فرقة عسكرية عند الطبري ٧/ ٤٣٣، في معرض الحديث عن فرق جيش الخليفة مروان بن محمد قبل معركة الزاب الحاسمة، ومنها الراشدية والذكوانية. مما يعني أن فرق الجيش كانت تميز عن بعضها بعضاً بأسماء محددة. ونعتقد أن المحقق لرسائل الجاحظ قد وهم حين جعل الصحصحية فرقة كلامية نسبها إلى المتكلم صَحْصَح الذي يورد له الجاحظ في كتاب الحيوان، دار الهلال، بيروت ١٩٩٧، ٣/٤٩٥، رأياً حول دخول الحيوانات وأرواحها الجنة مع متكلمين آخرين بينهم أبو الهذيل العلاف، وفي كتاب البخلاء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص٤، يورد الجاحظ رأياً لصحصح حول «تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة»، كما أن محقق كتاب البخلاء للجاحظ يقدم (ص٢٥٨) شرحاً لآراء صحصح الكلامية دون إعطاء الصحصحية مصطلحاً لفرقة كلامية، زد على ذلك أن البغدادي في «الفرق بين الفرق»، والشهرستاني في «الملل والنحل» لا يذكران الصحصحية بين فرقهم ومللهم. لكل ذلك نرى أن الصحصحية في السياق التاريخي الذي وردت فيه فرقة أو كتيبة قتالية لا كلامية.

(٧٣) الطبري، ٧/٤٠٣.

خيراً. وهناك رواية أخرى يوردها الطبري فيها أن نصراً قد خرج متوجهاً نحو الري لكنه لم يدخلها بل قطع المفازة الفاصلة بين الري وهمذان ومات بها.

كل هذه الروايات والتفاصيل تشهد ثانية على عمق التنافر القائم بين ابن هبيرة وابن سيار. فالرواية الأولى تشير إلى أن عطيفاً قد خرج من الري بعد أن علم بمسير نصر إليها، وتشير الثانية إلى أن ابن سيار لم يشأ أن يدخل الري لأن بها عطيفاً وقد سبق منه ما مر بنا وفضل قطع المسافة ليذهب إلى حليفه بهمذان وهو الذي تجنبه قبلاً عطيف. ويبدو أن هذه التطورات في اختيار الوجهة قد حدثت بعد عرض القيادة ثانية من قبل عطيف وآخرين لابن سيار، والذي نرجح أن يكون تم بواسطة المكاتبات وليس وجهاً لوجه وهو ما لم تبينه رواية المؤلف المجهول. ولا تتحدث المصادر عن السبب الذي جعل عطيفاً يتجنب همذان ويتجه إلى أصبهان حيث عامر بن ضبارة أحد القواد العسكريين المشهورين الموالين لابن هبيرة، كما لا تذكر السبب الذي جعل ابن سيار لا يدخل الري بل يتحمل مشاق السفر في شيخوخته ويجاوزها إلى همذان وتتركنا نستنتج من سرد الوقائع ما هو بديهي لديها ولا ترى أنه يستحق ذكراً استثنائياً، كما أن المصادر لم تشر إلى أثر هذا النفور بين الرجلين بل اكتفت كالعادة بسرد الوقائع من روايات مختلفة.

وهكذا نرى أن القوات الأموية كانت ممزقة وتفر من وجه بعضها بسبب الإحن والطموحات والتنافر الحاصل بين رجال بني أمية في العراق والجزء الشرقي من الخلافة، وهو ما سهل أكثر مهمات الثوار الزاحفين إلى العراق.. لكن الأسوأ مع ذلك لم يحدث وهو أن تتقاتل قوات أمراء الأمويين وولاتهم مع بعضها.

لا يتمكن ابن سيار من بلوغ محطته الأخيرة، إذ يثقل عليه هرم أيامه وما يعاني من كمد وقهر فيموت في «ساوه» (في المنتصف بين همذان

والري) عن ٨٥ عاماً، تاركاً لمن بقي من أولاده وصية تطلب منهم التوجه إلى الشام «فإن تكن لبني مروان مدة كنتم معهم، وإن كنتم غير ذلك أصابكم ما أصابهم»(٧٤).

ابن هبيرة وأحداث الثورة العباسية بعد وفاة ابن سيار:

بهزيمة جيش ابن هبيرة عند جرجان ومقتل قائده نُباتة ووفاة ابن سيار خلت خراسان ونصف بلاد إيران من ممثل للحكم الأموي وبات ابن هبيرة وجهاً لوجه أمام المسؤولية المباشرة وأمام وضع كهذا أخذ ابن هبيرة يقدر خطورته كل التقدير، ولعله بعد موت ابن سيار أراد أيضاً أن يثبت للخليفة أن ابن سيار كان المسؤول عن كل ما جرى.

جهز ابن هبيرة جيشاً بقايدة واحد من ألمع قادة بني أمية العسكريين في شرق الخلافة، هو عامر بن ضبارة المري الذي هزم الخوارج والطالبي عبدالله بن معاويه بن جعفر في جهات إيران ولم يُهزم بعد قط في أية مواجهة عسكرية وكان معسكراً بكرمان في جنوب بلاد إيران فأمر بالتوجه لملاقاة قُحطبة، كما عزز بقوات الجزيرة والشام بقيادة داود ابن يزيد بن هبيرة. ومن مظاهر جدية ابن هبيرة في مواجهة الموقف الآن الرقم الذي تعطيه المصادر لعدد أفراد هذا الجيش والذي بلغ ٥٠٠٠٠ مقاتل، كما أن روايات أخرى تقدره بمائة ألف وأخرى بمائة وخمسين ألفا مقاتل، وأياً كان الرقم الصحيح فإن هذا الجيش قد غلب عليه لقب «عسكر العساكر» للإشارة إلى ضخامته ولعلنا هنا نتذكر كلمات ابن هبيرة حين قال رداً على استصراخ ابن سيار له وطلب النجدة «ليس عندي رجل». إنه لم يكن صادقاً، بدليل ما جمع لنُباتة بن حنظلة قبلاً وما يجمعه الآن لابن ضبارة، بل كان غير جاد في إمداد ابن سيار وتحت إمرته كل هذه الألوف من الجند والتي لن تغني الآن شيئاً كما تنبأ بذلك ابن سيار لأنها تأتي في غير وقتها. فقد

(٧٤) ابن خياط، ص٣٩٦.

هزمت هذه الألوف شر هزيمة في مطالع رجب من عام ١٣١ للهجرة (مارس ٧٤٩م) قرب أصبهان في مكان يقال له «جابلق» وبه عرفت المعركة، وأمام جيش لا يجاوز عدد أفراده عشرين ألفاً بقيادة قُحطبة بن شبيب، الذي أضفى على قتاله منذ البداية مسحة إصلاحية دينية بالدعوة إلى كتاب الله – تعزيزاً لمعنويات جنده – مقلداً داهية بني أمية في صفين برفع مصحف على رمح وخاطب أهل الشام بأنه إنما يدعوهم إلى ما في القرآن فلقي منهم الشتم والغرور بكثرتهم، ودارت رحى المعركة وقاتل قُحطبة وجيشه بحماس وزخم الانتصارات التي سلفت لتكشف المعركة عن قوة فتية مصممة على النصر لأنها أشبعت بروح قتالية جديدة من أجل الخلاص والإصلاح وأملاً في آت جميل تحت شعار الرضى من آل محمد.

لقي القائد الأموي المحنك عامر بن ضبارة حتفه في الميدان، أما داود بن يزيد ابن هبيرة فقد فر من المعركة قبل بدايتها(٧٥)، وهو موقف لا يشرفه ولا أباه الذي تتم الآن باسمه مباشرة مقاومة زحف الثوار، وليس من ابن سيار الذي يحتج به لأي فشل يلحق به. لقد كانت هزيمة منكرة يصورها الطبري عن رواته قائلاً:

«انهزم أهل الشام وقُتلوا قتلاً ذريعاً وحووا عسكرهم فأصابوا شيئاً لا يُدْرى عدده من السلاح والمتاع والرقيق»(٧٦). ويرد في موضع آخر على لسان قائد الجيش العباسي قُحطبة «ما رأيت عسكراً قط جمع ما جمع أهل الشام بأصبهان من الخيل والسلاح والرقيق، كأنا افتتحنا مدينة وأصبنا معهم ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير»(٧٧).

وبسبب شهرة عامر بن ضبارة في المعارك وبطولاته السالفة لقي شهادة بالبطولة من خصومه بعد موته فقد قال أحد أعوان القائد العباسي

(٧٥) ابن خياك، ص٣٩٦. الطبري، ٤٠٦.
(٧٦) الطبري، ص٤٠٦.
(٧٧) الطبري، ٤٠٦/٧. ابن الأثير، ج٥/ ٣٩٩.

قُحطبة وهو يتأمل رأس ابن ضبارة مقارناً بينه وبين ابن سيار «لله بلادك أيَّ مسعر حرب وكريم كنت، وإن كنت على ضلال، مثلك فلتلد النساء لا كنصر بن سيار منتقلاً من جحر إلى جحر حتى قتله الله غماً»[٧٨] وهو موقف من مواقف اعتراف العرب بالشجاعة، إذ لم يجد خذلان ابن هبيرة والخليفة مروان لابن سيار عذراً عند صاحب هذه العبارة، لكن تصوير فراره من جحر إلى جحر لا يشهد على جبن ابن سيار الذي خبرته ميادين كثر، بل يشهد على حال الخلافة الأموية في مشرقها، وكيف تُرك رجل بوزن ابن سيار يفر من جحر إلى جحر. ثم إن ما جرى لنُباتة ومِن بعده ابن ضبارة هو بالضبط ما حذر منه ابن سيار حين كتب لابن هبيرة «أمدني بعشرة آلاف قبل أن تمدني بمائة ألف ولا تغني شيئاً».

ويبدو أن معركة جابلق قد اعتبرت حاسمة حتى قبل أن تقع فقيل «إن ظفر ابن ضبارة ثبت الملك، وإن ظفر قُحطبة تم الأمر لبني هاشم»[٧٩]. وهكذا فتح الانتصار في هذه المعركة الطريق إلى العراق خاصة بعد التخلص من بقايا القوات الأموية المتحصنة بنهاوند (إلى الجنوب من همدان) حيث كان الحسن بن قُحطبة يحاصرها.

وفي نهاوند يبرز مشهد آخر أليم من مشاهد تشرذم القوات الأموية وانعدام قيادة موحدة بسبب سياسات ابن هبيرة. فالمصادر تميز بين قوات الأمويين الملتجئة إلى نهاوند وتدعوها (أهل خراسان) وهم بقايا من خرج مع ابن سيار من خراسان، وتلك التي بقيت بعد هزيمة ابن ضبارة وعرفت (بأهل الشام)، حيث تم تأمين أهل الشام عبر قائدهم مالك بن أدهم الباهلي (بعد مقتل ضبارة) فيما يترك أهل خراسان أسرى ولم يطلب لهم أمان، «فلما كان السحر نادى منادي قُحطبة: كل من كان في يده أسير فليأت

(٧٨) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٤٥.
(٧٩) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٤٩.

برأسه، فقتلوا جميعاً»[٨٠]. وهكذا قطعت أعناق ثلاثة آلاف[٨١] رجل من أهل خراسان على مرأى من أهل الشام، في أكثر المشاهد دموية حتى تلك اللحظة من الزحف العباسي صوب العراق.

ويبدو أن قتل أهل خراسان – بغض النظر عن صحة الرقم – على ذلك النحو بعد أسرهم قد أثار استياء عاماً، يظهر ذلك مما رواه ابن خياط ونسبه إلى قُحطبة مشيراً إلى أنه لم يصالح على أهل خراسان وإنما على أهل الشام[٨٢]. كما أن ابن الأثير يذكر أن قُحطبة دعا أهل خراسان إليه وأعطاهم الأمان فأبوا ذلك، ثم استجاب له أهل الشام، وحين رأى أهل خراسان خروج أهل الشام من المدينة سألوهم عن الأمر فقالوا: «أخذنا الأمان لنا ولكم»[٨٣]، لكن المقدسي يعطي سبباً لقتلهم من قبل قُحطبة وهو رفضهم لدعوة أبي مسلم، وأن الأمان لم يكن معروضاً عليهم أصلاً، يقول المقدسي «فاستنزلهم وبذل لهم الأمان إلا من كان من أهل خراسان فإنه قتلهم كلهم لأنهم خرجوا من خراسان عند ظهور أبي مسلم»[٨٤]. ولسنا بصدد عرض العذر لموقف قُحطبة في الأمر بقتل الأسرى، بل بصدد إبراز طبيعة الجبهة الأموية في أكثر لحظاتها حرجاً وشدة، وكيف أن العلاقة بين ابن هبيرة وابن سيار هي المسؤولة عن ذلك التمزق، حيث لا تجد بعض فرق بني أمية نصرة عند أخرى.

وعلى النقيض من تمزق الجبهة الأموية كانت الجبهة الهاشمية متماسكة ويجري التشاور والتنسيق بين جبهاتها العلنية والسرية، تشهد بذلك تلك المراسلات المستمرة بين قواد الثورة الهاشمية في خراسان وجهات إيران

(٨٠) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٥٣. الطبري، ص٤٠٨.
(٨١) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ٣٥٤.
(٨٢) ابن خياط، ٣٩٧.
(٨٣) ابن الأثير، ٥/ ٤٠٠.
(٨٤) المقدسي، ص٦٤.

وبين أبي سلمة الخلال زعيم التنظيم السري في الكوفة، ومنها ما كتب به أبو سلمة لقُحطبة أثناء حصار نهاوند يطلب منه إعطاءهم الأمان لأن طول فترة حصار نهاوند كما رأى «قد قوت جند مروان ونسوا ما دخلهم من روع إيقاعك بهم مع ابن ضبارة»(٨٥).

ولا ريب أن كل هذه التطورات قد صعقت الخليفة مروان، خاصة وهو يرى جهات أخرى في غير إيران تنتفض عليه كالموصل، وأقنعته أن يتخذ للأمر أهبته وأن يتولى بنفسه مواجهة الأحداث، بل إنه وبعد هزيمة جابلق أرسل مدداً لابن هبيرة بقيادة الحوثرة بن سهل، لكن الحوثرة يصل إلى ابن هبيرة وقد استعد للحصار بواسط فيما القوات الهاشمية لا تزال بنهاوند. وفي الرسالة التالية التي وجهها الخليفة لابن هبيرة سنتعرف على صورة الأحداث في ذهن الخليفة كما جرت حتى الآن، خاصة وأن هذه الرسالة تأتي بعد هزيمة قواته الضخمة في جابلق.

«أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاك العراق لما أمل من كفايتك فأخلفت ظنه في أمور منها إبطاؤك عمن استصرخك من أهل طاعته بخراسان حتى وهنت قوتهم وقوي عودهم عليهم ومنها أخذك أهبة الحصار قبل أوان ذلك حتى أرعبت قلوب من معك وسهلت عليهم سبل الهزائم وإنما يكون الحصار بعد طول المنازلة والمحاربة. ومنها إغمادك السيف عن آل المهلب المتربصين للفتن، إلا يكون سفكت دماءهم وأبحت حريمهم. ومنها إهمالك أمر جنودك بلا شدة على أهل الريب منهم وإقامة الحدود فيهم؟ ومنها تقصيرك على قطع ألسنة من ينطق فيما يكرهه أمير المؤمنين من أهل الشام وقد رأيت آثار أمير المؤمنين وشكه بهم. ومنها اشتمالك على فيء المسلمين.. وهذا أعظم قوتك على عدوك، لعمري يا يزيد! لقد تجافى أمير المؤمنين اليوم وقبل اليوم عن أمور أخلفت فيها ظنه،.. وإن تنفّس لنا ولك في البقاء فسيعرفك ما

(٨٥) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٥١.

ظننت دونه ستوراً مرخاة، ثم يكلك إلى نفسك في ذلك، ثم لا تجد أمير المؤمنين يشهد الله عليك وكفى بالله شهيداً.. فإن كانت فلول ابن ضبارة وداود قد تجمعت إليك وقدم عليك الحوثرة بن سهل فيمن معه فانهض بنفسك للقاء هذا العدو الجاهد عليك الباسط سيفه إليك وإلى إخوانك ولا تستبق شيئاً من جدك»(٨٦).

كانت تلك جملة المخالفات التي رصدها الخليفة على واليه ابن هبيرة وفي مقدمتها كما رأينا الإبطاء عن نصرة ابن سيار وهو يحمله مسؤولية ما وصلت إليه الأمور، لأن الإبطاء كما يراه الخليفة هو السبب في التدهور الخطير الذي حصل حتى الآن وهو ما ألمحنا إليه في ثنايا البحث وهناك أيضاً إعلان الخليفة بأنه يعرف أموراً يعتقد ابن هبيرة أنها غائبة عن أمير المؤمنين وأنه سيذكرها له لو لهم في العمر بقية، وأن الأمور التي يعرفها هي على غير ما يهوى الخليفة، ثم هناك الإشارة إلى طبيعة الإرجاف المنتشر ضد الخليفة وهو الإرجاف الذي ساهمت فيه لا شك الدعاية الهاشمية بقصد تمهيد النفوس لتقف معادية لمن تشتد الدعاية ضده. وقول الخليفة أن ابن هبيرة قد قصر في قطع ألسنة من ينطق فيما يكرهه أمير المؤمنين دليل على قوة الإشاعة التي بثها رجال الدعوة العباسية أو تلك التي بثتها ألسن المعارضين لمروان بسبب التغلب على الخلافة من آل المهلب تحديداً، ومن هنا إشارته إلى ألسنة السوء من أهل الشام. ويخلص إلى تحميل ابن هبيرة تبعة ما يجري وأنه قد أخلف ظن الخليفة فيه.

وخطاب للخليفة كهذا لا بد أن يستنفر ابن هبيرة ليس فقط لتولي القتال بنفسه كما أمر الخليفة بل أولاً للرد على جملة المخالفات التي أحصاها الخليفة على ابن هبيرة، وقد رد ابن هبيرة بخطاب فنّد فيه ما لامه الخليفة عليه، وهو برده هذا يكشف لنا مزيداً من أحوال الخلافة المترهلة في هذا الوقت:

(٨٦) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٦٠.

«قد فهمت كتاب أمير المؤمنين وما جهلت بلاءه ولا قصرت في نصيحته، ولا حدت عن جهة الحق وحزم الرأي فإن أتت الأقدار بخلاف ما تهوى فإن تقدير الله فوق تقدير العباد. أما ما ذكر أمير المؤمنين من إبطائي عمن استصرخني بخراسان، فقد علم أمير المؤمنين أني صرت إلى العراق وهي حرب كلها، فكان أقوى ما يحضرني علاج ما قرب مني وكنت في ذلك قد شغلت جنود أهل الشام جميعاً بالخوارج تارة وبابن معاوية أخرى وبسليمان بن حبيب أخرى. لم أكن لأستعين بأهل العراق وقد علم أمير المؤمنين ما هم عليه من غشه وغش دولته فيما استصرخني فيه أهل خراسان ولم آمن إن فعلت أن يظاهروا عدو أمير المؤمنين فيلزمني لائمته في ذلك وتقصيره. وأما تأهبي للحصار فإني فعلت ذلك حين رايت ما قدمت من القوة وقد وهنت، ورأيت من قاتل العدو وقد فشلوا وضعفت نياتهم في جهاد عدوهم، فجعلت ذلك عدة حزم إن اضطررت إليها حمدتها وإن استغنيت عنها لم أذمها. وأما إغمادي السيف عن آل المهلب فإني رأيتهم من اليمن بمكان فكرهت لذلك هيجهم ولم آمن إن فعلت أن ينابذني أهل العراق منهم ومن معي من أهل الشام فتألفتهم وتربصت بهم. وأما إمساكي عن تأديب أهل الشام وتركي الشدة عليهم في سوء سيرتهم فإني رأيت سوء السيرة قد شملتهم فكرهت أن أعنف على جماعتهم وهم عوني على عدوي فتفسد بذلك بصائرهم ويقبلوا عليّ بعداوتهم دون عداوة عدوهم، ولعل إفراط أمير المؤمنين في عقوبته وتنكيله قد أفسد عليه قلوب أهل دولته وحملهم على التقصير في نصرته. وأما ما ذكر أمير المؤمنين من اشتمالي على فيء المسلمين فلعمري إن في عمالتي وأرزاقي لما يغنيني عن ذلك ومنزلي من قنسرين بحيث قد علمه أمير المؤمنين وهو في إطلاله عليه وقربه منه بحيث لا مؤونة عليه في تفتيشه والتنقيب عما ذكر له فيه، فليبعث أمير المؤمنين من يثق بدينه وصحته فيبحث عن ذلك ويبالغ في التفتيش عنه، وليس ما استقصر أمير المؤمنين من عملي وأساء ظناً بي بمزيلي عن طاعته ولا مكدر

عندي صنيعته. وأما ما ذكر من تبكيتي بخطأي، فليس في عظيم ما حملني من ولايته، ولا بمكتف بما عندي دون إرشاده وتأديبه، وليت الله قد أظهر أمير المؤمنين على عدوه، أعطاه سؤله وبسط له يده وقوله وفعله، وخمدت نيران الفتن عنه فيعرف نصيحتي له وقيامي بأمره وينفذ عليّ فيما سرني وساءني حكمه.

وقد رأيت أمير المؤمنين قد حمل أكثر أموره على سوء الظن فيما يعامل به من ائتمنه عليها حتى لقد ظننت أنه لم يبق أحد من أعوانه وعوام رعيته إلا أوحشه ذلك منه وخاف بادرته وسطوته من مقام في ذنب وسليم قلب والسلام»(٨٧).

ولا بأس من إعادة ترتيب أفكار الكتاب لإيضاح بعض النقاط.

في هذا الخطاب:

- يعتذر ابن هبيرة عن الإبطاء عن نصرة ابن سيار بحربه الخوارج.
- يعرب عن عدم ثقته بأهل العراق وأنهم منطوون على غش أمير المؤمنين.
- يبسط مبررات الاستعداد للحصار مشيراً إلى هزائم قواته السابقة.
- يبرر تحاشي معاداة أهل اليمن في العراق كي لا ينتفضوا عليه وبخاصة أن أهل اليمن يشكلون أصل الجند الهاشمي الزاحف.
- دحض تهمة الاستيلاء على أرزاق المسلمين.
- يبرر تحاشي الشدة على أهل ألسنة السوء مداراة لهم لأنهم عونه ويخشى الانتفاض عليه.
- ينقد أمير المؤمنين لإفراطه في العقوبة والتنكيل وهو سبب إفساد القلوب عليه.

(٨٧) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٦١-٣٦٢.

- ينقد أمير المؤمنين على سوء ظنه بحيث يوحش الأمراء والعامة على السواء.

وباستثناء النقد الموجه لأمير المؤمنين نرى أن ابن هبيرة يرد بواقعية على ما أحصى الخليفة عليه من ملاحظات، وهي ردود تكشف مجريات الأمور بين القوى والقبائل المختلفة، كما أنها تكشف إدراك ابن هبيرة لآثار ما قد يتخذ من قرار صحت تلك الآثار أم لم تصح، كما قدم عذراً مقبولاً لأهبة الحصار التي نقد عليه.

أما أن يذهب ابن هبيرة في رده إلى بسط نقد واضح لأمير المؤمنين على هذا النحو وفي هذا الوقت، فهو ليس مما ألفته المكاتبات بين الخلفاء وولاتهم، وبخاصة أن النقد الموجه للخليفة يصوره أحمق لا يجيد التعامل مع من حوله، ولم يكن مروان بن محمد هكذا بل عد من أفضل خلفاء بني مروان لو أنه جاء قبل أن يتسع الخرق على الراقع. لذلك نرجح أن تكون عبارات النقد بصيغها الواردة من زيادات الرواة من أهل الهوى العباسي وهي انعكاس لطبيعة الإشاعة التي اعتمدها خصوم مروان فصور مفرطاً في العقوبة ومسيئاً الظن بمن حوله لإضعافه وتخويف حلفائه منه.

سقوط الخلافة ومصرع ابن هبيرة:

المشهد الأخير المتصل بمحاولة ابن هبيرة التصدي للقوات الزاحفة معلوم ومشهور ومتداول عند المؤرخين ونحن لن نضيف إليه جديداً هنا، لكن لا بأس من ختم الموضوع بتصوير عام للمشهد الأخير الذي حذر منه ابن سيار «..وإنكم إن تقاعدتم عني أخرجت من داري كلها، وإذا أخرجت منها دُخل عليك دارك، ولو دخلت جحراً لدخل عليك فيه حتى يؤتى عليك وعلى غيرك».

فقد اتجه ابن هبيرة بقواته إلى حلوان للقاء قائد الزحف الخراساني قُحطبة بن شبيب، ومن هناك أخذ يحرك قوات أخرى تابعة له هنا وهناك ومنها تلك التي استأمنت في نهاوند من أهل الشام ونجت مما حل بأهل

خراسان. ويبدو أن خروج ابن هبيرة من الكوفة باتجاه المدائن ثم حلوان وظهور اضطراب الأمر عليه في العراق وانتشار الطاعون في البصرة[٨٨]، شجع خصوم الأمويين الكامنين على الظهور في أنحاء متفرقة من العراق وهو ما لاحظه بل وشارك فيه أبو سلمة الخلال ثاني أهم رجل في الدعوة بعد أبي مسلم وصاحب الأمر والنهي بعد مقتل الإمام إبراهيم بن محمد العباسي بعد أن كشف أمره ووضع في السجن فمات أو قتل في روايات كثيرة متضاربة حول الكيفية والوقت، ويبدو أن موته كان قبل دخول قواته الكوفة بوقت قصير. لكن موته كان مقدمة ليصبح أبو سلمة الخال، وزير آل محمد كما لقب بعد ذلك، المتصرف الأوحد في الأمور في جهات العراق وهو الذي قام بالتحريض ضد الأمويين في البوادي المطلة على الكوفة والبصرة[٨٩] وهو الذي نصح قُحطبة بالانحراف عن ابن هبيرة وعدم الالتحام معه بعدما انتقل الأخير إلى جلولاء استعداداً للمعركة، بل عليه أن يسرع إلى الكوفة ويدخلها وسيكون ذلك أصلح لأمورهم[٩٠].

وهكذا يبدأ سباق بين الجيشين للوصول إلى الكوفة، إلى أن يتواجها على شاطئ الفرات فيكون قُحطبة على الجانب الغربي منه فيما ابن هبيرة على جانبه الشرقي، حيث دارت بين الفريقين معركة ليلية خاطفة بعد اقتحام قوات قُحطبة لمخاضة في جانب من النهر قرب الفلّوجة العليا في مطالع محرم من عام ١٣٢هـ (أغسطس ٧٤٩هـ). وأسفرت المعركة غير الحاسمة عن انسحاب ابن هبيرة إلى واسط ولم يعلم إلا لاحقاً بمقتل خصمه قُحطبه وغرقه في النهر.

وهكذا تتمكن قوات العباسيين من دخول الكوفة بعد أن مهد الأمر هناك

(٨٨) ابن خياط، ص٣٩٨.
(٨٩) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٥٥.
(٩٠) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٦٤.

محمد بن خالد القسري[٩١] بتغلبه على الكوفة بمن ثار معه من اليمانية ودخوله دار الإمارة وخلع مروان بن محمد وإعلان الولاء للرضى من آل البيت في نفس الأسبوع من شهر محرم عام ١٣٢هـ[٩٢] (سبتمبر ٧٤٩م).

أما ابن هبيرة فقد كتب للخليفة من واسط رسالة يصف له فيها أول معركة يقودها ابن هبيرة بنفسه ضد المسودة في فناء داره هو هذه المرة، وهي تكشف حال عسكر ابن هبيرة والروح المعنوية المتهاوية:

«إنا التقينا نحن والمسودة على شاطئ الفرات ليلاً فاقتتلنا قتالاً شديداً نهزمهم حتى نردهم إلى الفرات، ويكثرون علينا حتى يدفعوا أصحابنا وتخاذل الناس فلم يبق معي إلا عدة صبروا وكرموا، فشددنا عليهم شدة صادقة رددناهم بها إلى الفرات، فعبروه إلى عسكرهم، وغرق قُحطبة، ولما انهزم الناس عني مضيت في أهل الحفاظ إلى واسط إلى أن يجتمع الناس ويراجعوا طاعتهم، ثم أنهض بهم إلى الكوفة، وفي مقامي بواسط كسر لحدهم عن أمير المؤمنين إن شاء الله»[٩٣].

لقد أمل ابن هبيرة أن يستعد لدخول الكوفة ثانية من واسط، وإن لم يستطع فإنه على الأقل يخفف الضغط المتوقع على الخليفة، تلك كانت أماني ابن هبيرة التي عبر عنها بخطابه هذا، لكنه من واسط شهد إعلان الخلافة لبني العباس في الكوفة، وتابع وقائع معركة الزاب في جهات الموصل وهزيمة الخليفة مروان بن محمد، كما وصلته أخبار ملاحقته إلى صعيد مصر حيث لقي هناك مصرعه، وليعثر في حوزته ضمن ما عثر عليه على بعض من المراسلات التي يوردها المؤلف المجهول في تضاعيف كتابه. ثم

---

(٩١) بعد تسليم الخليفة الوليد بن يزيد أباه ليوسف بن عمر الثقفي ليقتله شارك في الإعداد لقتل الخليفة الوليد بن يزيد ثم قتل يوسف بن عمر الثقفي. انقلبت عليه الأمور بتغلب مروان على الخلافة وها هو الآن يجد فرصة أخرى للإعانة على مروان بن محمد في الكوفة.

(٩٢) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٦٨.

(٩٣) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص٣٧٢.

يرى بأم عينيه كيف لا يهمل الخلفاء الجدد أمر واسط وتأتيه الجيوش محاصرة بقيادة الحسن بن قُحطبة أولاً ثم يتولى الحصار أبو جعفر المنصور عبدالله أخو الخليفة أبي العباس.

ولا شك أن هذه التطورات المتلاحقة قد أدمت فؤاد بن هبيرة وهو يرى نفسه، وقد كان حاكم المشرق كله محاصراً في واسط، فيهتدي إلى فكرة البحث عن إمام للقتال تحت رايته، وليبدد باسمه من تجمع حول بني العباس الذين ما تزال تنقصهم شرعية كافية مقبولة بين عامة المسلمين، وما دامت الجموع قد حشدت تحت شعار الرضى من آل محمد فليكن هذا المرضي عنه شخص من غير بني العباس، بل من الأقرب لآل محمد، من الفرع العلوي، ويجد ضالته في محمد بن عبدالله(٩٤) أحد آل الحسن الطامح إلى السلطة مثل أبيه عبدالله بن الحسن، وهما المدركان لخفايا الطموح العباسي(٩٥).

وهم وبحكم المقاومة الطويلة الأمد أكثر حضوراً في أذهان الناس من بني العباس. ويبدو أن شيوع هذه الفكرة واستعداد ابن هبيرة لحصار طويل في واسط مع صمود من معه من رجال وبقية هيبة نافذة لشخصه قد أقنع أهل الرأي في بني العباس بخطورة ما ينويه ابن هبيرة، وأنه إن فعل ثارت

(٩٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسية، ص١٧٣.

(٩٥) يورد المؤلف المجهول لأخبار الدولة العباسية، ص٣٨٨-٣٨٩ خبر لقاء بين عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبين إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس يدور فيه حوار عن «تشمير أهل المشرق في الدعاء لآل محمد»، ويحاول عبدالله اقتراح ولده محمد ليكون الإمام وأنه هو الذي أملته الشيعة فيعترض إبراهيم على ذلك معتلاً بحداثة سن محمد بن عبدالله فيدرك عبدالله بن الحسن أن إبراهيم «قد وطأ الأمر لنفسه». ومحمد بن عبدالله المقترح هنا هو الذي سيغلب عليه لقب «النفس الزكية»، وسيثور في وجه أبي جعفر المنصور عام ١٤٥ هو وأخوه إبراهيم وسيقتلان، لكن أخاً لهما صغير يدعى إدريس سيتمكن بعد ذلك من إقامة دولة علوية في المغرب باسم الدولة الإدريسية (١٧٢-٣٦٣هـ).

اليمنية مع ابن هبيرة فأخذوا بمراسلة من معه من أهل اليمن لأمن جانبهم أو تحييدهم على الأقل وبالدخول في حوار مع ابن هبيرة انتهى إلى تأمينه هو ومن معه وكتب بذلك كتاب رُصِّعَ بكل أشكال الضمانات المقبولة لذلك العصر(٩٦). لكن كتاب الأمان ما وضع فيه من كلم وما حشد له من علماء شهود ضماناً للالتزام به لم يجد نفعاً، إذ تدور بين أركان الحكم العباسي مشاورات لقتل ابن هبيرة فيلقى مصرعه بعد ذلك هو وابنه وخمسون من أعوانه، أكان ذلك بتحريض من أبي مسلم بخراسان كما تحكي المصادر أم برغبة من الخليفة الجديد أبي العباس، أم باتفاق الاثنين معاً. أما أبو جعفر المنصور أحد طرفي الاتفاق فتصوره الروايات مرغماً على قتله.

الخاتمة:

والخلاصة أن سياسات ابن هبيرة تجاه خراسان قد حُكمت بما كان بينه وبين ابن سيار من نفور وعدم اتفاق وتنافس في المقام والقرب من الخليفة بينه وبين ابن سيار. وقد أدى هذا إلى قصر نظر فيما يتعلق بأحداث خراسان، حيث فضل أن يترك ابن سيار في مأزق يظهر فيه عجزه كي يتمكن ابن هبيرة من إيغار صدر الخليفة عليه وهي من الدسائس والمؤامرات المألوفة عند ولاة بني أمية وفي العراق خاصة، ولم يكن ابن هبيرة استثناء، مع أنه بالتأكيد لم يكن يرغب في زوال حكم بني أمية وتظهر الأحداث التالية ذلك بجلاء، لكنه أيضاً لم ينظر لمصلحة الخلافة برمتها في المقام الأول ليتخذ الموقف المناسب ويرسل الأمداد في وقتها حتى وإن دعم بذلك أحد خصومه كابن سيار، بل أدخل في حساباته ومبررات موقفه طموحه الشخصي وصلته غير السوية بابن سيار لتكون نتائج هذا الموقف أبعد مما قدر وأمل، وبخاصة أن ظهور أبي مسلم بوصفه قوة مهابة في جهات خراسان تدعو للرضى من آل البيت ثم احتلال مرو كان يحتم ترتيباً آخر للأولويات غير الهوى الشخصي والشماتة بوال من ولاة بني أمية.

---

(٩٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص١٧٤-١٧٥.

أما ابن سيار فقد مات عزيزاً وفياً لخلافة بني أمية، غير مفرطٍ في الدفاع عن خراسان في وجه الخارجين ولا مدخراً جهداً في مواجهة الزحف العباسي وحاول عبثاً عرض خطورة الموقف والتحذير من أليم نتائجه. ولئن لم يسعفه الخليفة ولا ابن هبيرة بنجدة يوقف بها زحف الثوار فقد أكرمه القدر بالموت قبل أن يشهد الفاجعة التي تجرعها بعدئذ مروان وابن هبيرة معاً، وهي سقوط الخلافة الأموية كلها.

كما إن قلة المبالاة بكتب ابن سيار هو السبب الذي أعطاه مروان بن محمد للمصير الذي أدركه كما جاء في إجابة له حين سؤل في طريق تقهقره «ما الذي أصارك إلى هذا؟ قال قلة مبالاتي بكتب نصر بن سيار لما استنصرني وهو بخراسان»(٩٧).

والراجح أن هذه الكلمات هي لسان حال الموقف كله لا الخليفة مروان وحده، مع التشديد على أننا لسنا بصدد الحديث عن مسببات سقوط الدولة الأموية(٩٨)، كما أننا لن نجازف هنا ونعد سوء العلاقة بين ابن سيار وابن هبيرة السبب في سقوط الخلافة الأموية، لكننا نستطيع باطمئنان أن نقرر أن سوء العلاقة بينهما قد أسهم بقسط وافر في التمهيد لسقوطها، وهي نتيجة نعدها هامة حين نأخذ بعين الاعتبار أن الأبحاث التي تركز سقوط الخلافة الأموية لا تلتفت إلى صلة علاقة رجلي بني أمية بأسباب السقوط، وهي العلاقة التي نأمل أن نكون قد أوضحناها وآثارها بتفصيل كاف في ثنايا البحث.

---

(٩٧) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج٧ دار صادر، بيروت، ١٥١.

(٩٨) الكتب التي تتحدث عن أسباب سقوط الدولة الأموية كثيرة، انظر – مايلي بوصفه عينة لأسباب السقوط – سعدي أبو حبيب، مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢، ص١٢١–١٦٠، وفيما يتعلق بابن سيار فإن ما يذكره صاحب الكتاب هو المشهور جملة وهو غياب التنسيق بين ولاة بني أمية.

المصادر والمراجع

أولا المصادر:

١ – ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج٥، دار صدار، بيروت، ١٩٨٢.

٢ – البغدادي، عبدالقادر بن عمر (. ت ١٠٩٣). خزانة الأدب ولب لباب أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت.

٣ – البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد علي، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار المعارف، بيروت، ١٩٧٠.

٤ – الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ج٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٥ – الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ج١، ط٤، دار الفكر، بيروت، دت.

٦ – الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، الحيوان، تحقيق الدكتور يحيى الشامي، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٧.

٧ – ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، ج٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

٨ – ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب، (ت٢٤٥) كتاب المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، المكتب التجاري، بيروت، دت.

٩ – ابن خلدون، عبدالرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٥، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ١٩٩٩.

١٠ – ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (٦١٨) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج٧، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

١١ – ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، دار القلم ومؤسسة الرسالة، ١٩٧٧.

١٢ – الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت٢٨٢) الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، د. جمال الدين الشيال، دار المسيرة، بيروت، د.ت.

١٣ – الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد عثمان، سير أعلام النبلاء، ج٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢.

١٤ – الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد عثمان، تاريخ الإسلام، ووفيات أعيان المشاهير والأعلام حوادث ١٢١–١٤٠هـ. تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ١٩٩١.

١٥ – الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبدالكريم بن أبي بكر، الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥.

١٦ – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٧، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.

١٧ – ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦) الإمامة والسياسة، تحقيق الأستاذ علي شبري، ج٢، ط١، دار الأضواء ١٩٩٠ (ينسب هذا الكتاب عادة لابن قتيبة).

١٨ – ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦) المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٩ – ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد، العقد الفريد، تقديم الأستاذ خليل شرف الدين، مج٤، الطبعة الأخيرة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٩.

٢٠ – مجهول، مؤلف من القرن الثالث، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق د. عبدالعزيز الدوري، د. عبدالجبار المطلبي.

٢١ – المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (٣٤٦)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ط١، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

٢٢ – المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، (المنسوب إلى أبي يزيد أحمد بن سهل البلخي) ج٦، دار صدار، بيروت، مصور عن طبعة باريس عام ١٨٩٩.

٢٣ – مجهول، العيون والحدائق، من خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم، مطبعة بريل، هولندا، ١٨٦٩.

٢٤ – اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠.

ثانياً المراجع:

٢٥ – حافظ عرفة، ثريا، الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول، ط١، رسائل جامعية، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٢.

٢٦ – أبو حبيب، سعدي، مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢.

٢٧ – شعبان، محمد عبدالحي (دكتور) الثورة العباسية، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية، أبوظبي، ١٩٧٧.

٢٨ – فاروق عمر، فوزي (دكتور) طبيعة الدعوة العباسية، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠.

٢٩ – عبدالله عبدالحليم، رضى، (دكتور) دراسات في تاريخ العصر العباسي في العصر الأموي، الأندلس للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٧.

٣٠ – مصطفى، شاكر (دكتور) دولة بني العباس، ج١، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٢.

٣١ – مهدي الخطيب، عبدالله، الحكم الأموي في خراسان، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٥.

أحمد علي السري دكتوراه في تاريخ صدر الإسلام والحضارة الإسلامية من جامعة هامبورج بألمانيا سنة ١٩٨٩، أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك ورئيس قسم التاريخ والآثار بكلية العلوم الإنسانية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، وله اهتمامات بحثية في مجال قضايا فكر الإسلام المعاصر وجذوره التاريخية، بالإضافة إلى اهتمام خاص بالتاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام.